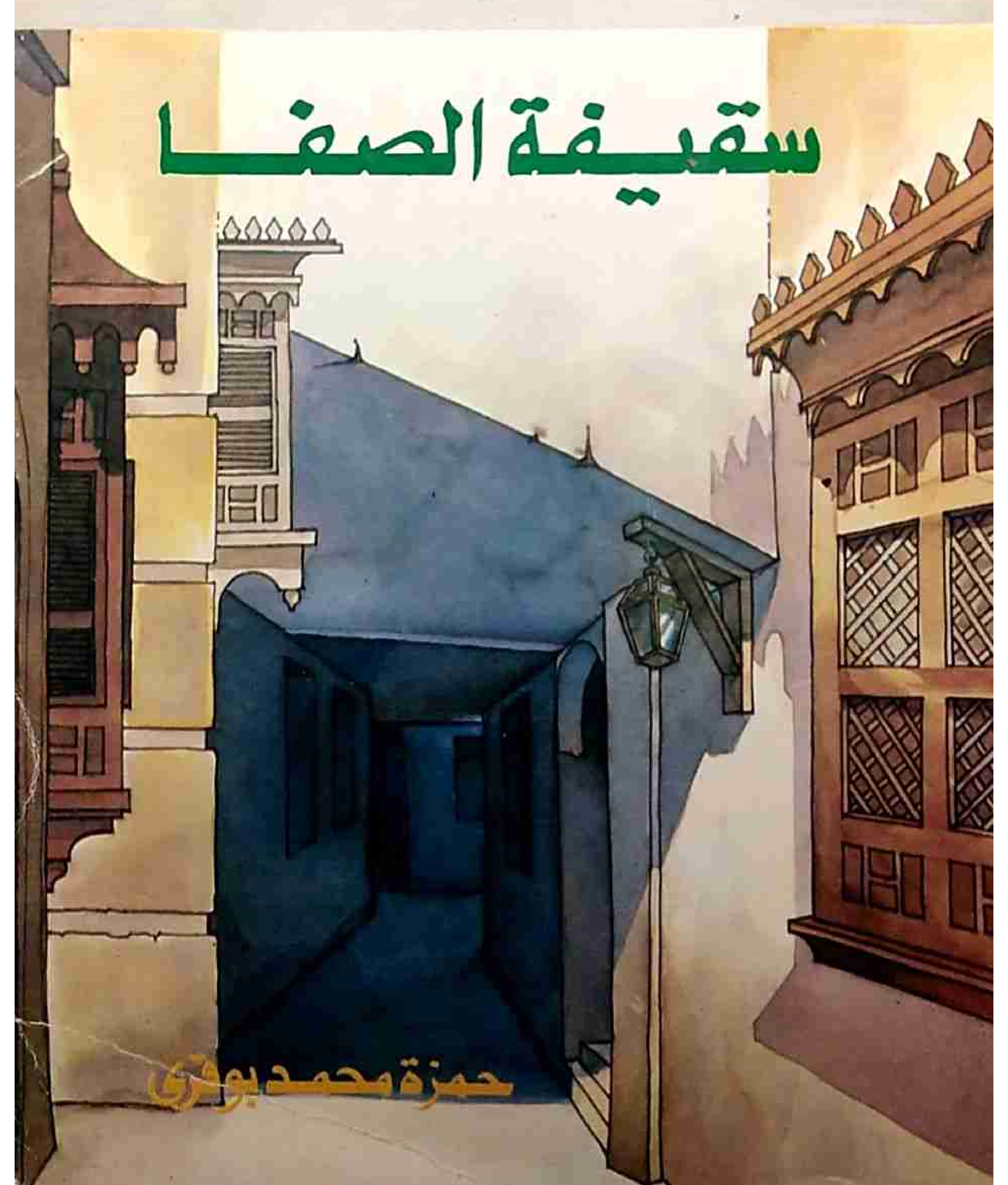
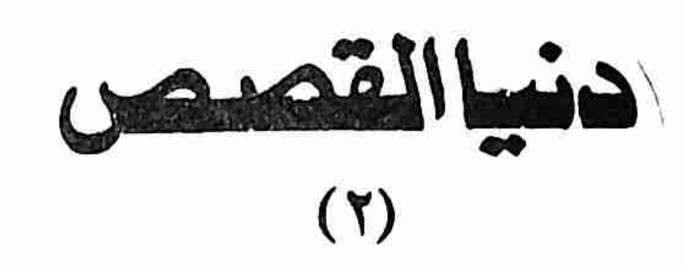
دنيا القصص

٢



سقيفة الصفا

حمزة محمد بوقري



سقيفة الصفا

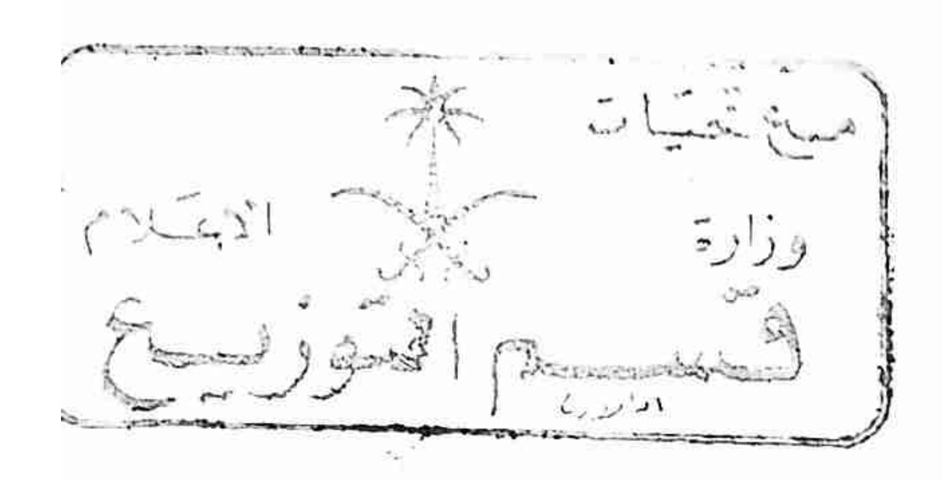
حمزة محمد بوقري

منشورات دار الرفاعي

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
ص.ب ١٥٩٠ - الرياض ١١٤٤١

الغلاف واللوحات الداخلية
بريشة الفنان أحمد الديب



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

لم أر في حياتي إنساناً يموت قبل اليوم.. وعندما مات أبي وأنا صغير لا أميز كنت يومها لدى جدتي العجوز التي لم تستطع أن تشهد وفاة ابنها فلما عدت إلى المنزل في اليوم التالي علمت أن أبي مات لاأكثر ولا أقل.. لهذا كان موت عمي شيئاً جديداً بالنسبة إليّ لا لأنني تألمت يومها ــ فكثير من الأطفال في مثل سني لايفرقون بين أن يكون في بيتهم مأتم أو عرس وكل مايهمهم من الحالتين التغيير الذي يطرأ على حياة البيت والحرية التي ينعمون بها بسبب الحوادث الطارئة.. وكثرة الضيوف.. والأنوار.. وتغير نوع الطعام.. وأخيراً السهر حول المنزل إلى أن يتقدم الليل.

كنت يومها طالباً خاملاً في مدرسة أهلية لايفصلها عن بيتنا سوى شارع ضيق كان مسرحاً لنا خلال فترات الراحة بين ساعات الدرس وكان ملعبنا في العصر عندما تنتهي دراستنا.. وكان عمي في تلك الأيام ــ وقبل وفاته بطبيعة الحال ــ يقول لي دائماً: إنني لا أصلح لشيء.. وإنني لن أنجح في الحياة وسأكون عالة على غيري وكان يراهن على ذلك دائماً بلحيته الكبيرة البيضاء المنتشرة

حول وجهه و يقول: إذا نجحت فاحلق ذقني ـ ثم يمسكها بيده و يشدها برفق.. وأحياناً كان يستبدل تلك الجملة بجملة أخرى طالما حيرتني وسببت لي كثيراً من الضيق.. كان يقول: إذا أفلحت في شيء فتعال وبل على قبري.. ولما لم تكن للقبر في ذهني أية صورة واضحة فقد كنت أفكر دائماً في الطريقة التي يمكن أن يبول بها إنسان على قبر غيره. وطالما ساءلت نفسي هل هناك كثيرون يبولون على القبور وأين هي ياترى..؟ لاشك أنها بعيدة.. إذ لم أمر بها لا في طريقي إلى المسجد.. ولا إلى بيت جدتي..

ولكثرة ضيقي به كنت أتمنى أن يحدث شيء للحيته.. يحلقها أو تتساقط من نفسها.. لأرتاح منها.. ولأرى كيف يصبح بدونها ـ وبقسوة الأطفال كنت أحياناً أتعمد مضايقته.. بل كنت كثيراً ما أتمنى أن يموت وأن أقف على قبره أنفذ وصيته.. إلا أن طيبة الطفولة كانت تتغلب علي فأبكي كثيراً بعد هذه الأفكار وأتعلق به وأربت على لحيته.. خوفاً من أن يتحقق ما تمنيته.

□□□



«وحول الرمس الذي ووري فيه تدافع الناس ليشاركوا في تنكيسه.. وفعلت كل مافي وسعي حتى لا تفوتني رؤية شيء..»

على دكة خشبية عالية بعض الشيء عن تلك التي كنا ننام عليها في السطوح وضعوه و يداه على صدره ووقف قبالته رجل انقبضت لمرآه نفسي ــ كان طو يلاً.. طو يلاً.. يشد على وسطه حزاماً أزرق باهت اللون و ينتعل حذاء بالياً ذا أصبع من ذلك النوع الذي اندثر هذه الأيام ــ وكان يغرف بيده من الإناء ماءا دافئاً كان يصبه على الجسد المطروح أمامه، وهو يقرأ و يتمتم بكلام لا أفهمه، وخلف الباب أمي وأخواتها ونساء كثيرات لا أعرفهن يبكين و يصرخن حتى أن إحداهن أغمي عليها من كثرة البكاء.. والرجل واقف في مكانه لايعبأ بهن.. و بين الفينة والفينة كان يقطع عمله ليشمر عن ساعديه و يصيح: «وحّدوه.. وحّدو الله ياعالم» فيزداد الصراخ و يتعالى النحيب.. حتى الأطفال المعلقين على صدور أمهاتهم بدءوا يصيحون.. واغرورقت عيناي في تلك اللحظة بالدموع.. لابد أن الأمر مهم إلى هذا الحد.. وودت لو أستطيع أن أفعل شيئاً.. ولكني لم أعرف ماذا يكون ذلك الشيء؟ وظللت أغالب البكاء .. مدة.. ثم انفجرت في صياح عال لم أعهده في نفسي ثم اندفعت خلال الممر الطو يل «الدهليز» الذى كان يغسل فيه ــ إلى الشارع ــ حيث تحرش بي صبي أكبر مني سبق أن

تشاجرت معه مراراً.. واشتبكنا بالأيدي فأخذ يضربني على رأسي وصدري بقبضة يده، وركبته، وحتى برأسه فلا أجد ما أفعل سوى الاستمرار في البكاء ـ إلى أن خرج جمع المشيعين ووقفوا في صف طويل ثم حمل النعش خارجاً.. حمله أربعة ثم وضعوه على الأرض أمام المنزل.. وقرؤا عليه الفاتحة ـ وصاح أحدهم بصوت عال جداً: «من أهل الخير إن شاء الله» .. وعلا النحيب مرة أخرى نحيب أمي وجاراتها.. وتحرك الموكب.. ووقفت أنا في مكاني لا أعرف ماالذي ينبغي علي أن افعله؟ هل ألحق بالرجال أم أعود إلى المنزل.. ومرت لحظات والموكب يبتعد شيئاً فشيئاً والنحيب يتضاءل وفجأة قررت الجري وراء النعش.

كنت حافي القدمين ـ عاري الرأس.. وظللت أعدو حتى أدركت الموكب الذي أخذ يتضخم كلما تقدم به السير ـ كان الباعة وغير الباعة، وجموع المصلين الزاحفة إلى المسجد لتلحق بصلاة العصر.. كان كل أولئك يشارك في حمل الميت، حمل عمي للصلاة عليه، وصادف حين دخولنا المسجد دخول موكب آخر من باب آخر، وعندما أقيمت الصلاة كانت على الأموات الحاضرين لا على ميت واحد.

كانت تلك أول صلاة على موتى بالنسبة إليّ ولم تكن آخرها، فقد أصبحت لي صلة كبيرة في مقبل أيامي بالموتى والجنائز وذلك حين كبرت قليلاً، وأصبحت في طور المراهقة، وحين نذرت أن أحمل كل ميت يصلى عليه وأنا بالمسجد حتى أوصله إلى مثواه، وخاصة اولئك الذين لايتبعهم جمع غفير من الصحب والأقارب.

وانتقل الجثمان من يد إلى أخرى خارج المسجد بسرعة كبيرة فلقد شارك كل من خرج من باب المسجد سائراً في اتجاه المقابر في حمله في حين سار خلفه عدد من الناس وضع بعضهم على رأسه «جبته» ــ وكانت تلك سمة توضح أهل الميت ــ ومع أنني ربما كنت أقرب إنسان له، إلا أن أحداً لم يعبأ بي، كما أنني لم أعرف من أقربائه أحداً سوى شيخ كنت أسمع عمي يناديه بكلمة يا «خال».

وحول الرمس الذي ووري فيه، تدافع الناس ليشاركوا في تنكيسه وفعلت كل ما في وسعي حتى لا تفوتني رؤية شيء، ولقد جلست أخيراً وبعد أن دافعت من حولي على حافة القبر أشاهد المنظر الذي عاش في نفسي منذ ذلك اليوم، وكان آخر مالمحته في ظلمة القبر

تلك اللحية البيضاء منثورة على صدره بعد أن كشف عن وجهه، وقبل أن تطبق الصخور الكبيرة عليها، و يبدأ الجمع يحثون التراب عليه.

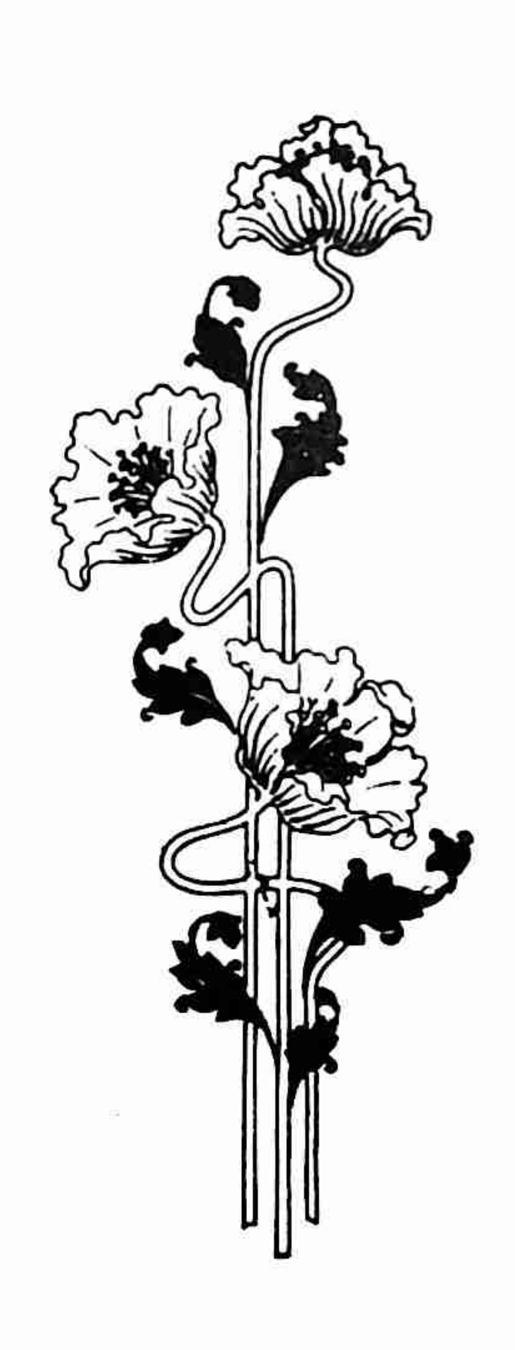
لم أنم تلك الليلة في يسر كما اعتدت دائماً، ولم يكن ذلك لأنني حزنت على عمي ــ فالحق لم أحزن عليه، ولاأظن أن أحداً حزن عليه بما فيهم والدتي، ولكن تلك التجربة الجديدة منذ الصباح حين سُجي واغمضت عيناه إلى أن لحته لآخر مرة.. وعصاته هذه، والحذاءان اللذان يقفان أمامي قرب الفراش الذي كنت أنام عليه ــ كل ذلك غاص في أعماقي وظل راقداً هناك. بدون أن أشعر آنذاك أنه سيعيش معي لسنوات وسنوات.

لقد رأيت الموت في أبسط صورة وأوضحها، وظل ذلك اليوم يحفر في نفسي وأنا لاأدري.

وعدت إلى المدرسة بعد أن انتهت أيام العزاء الثلاثة لأجد أن الجو قد تغير حولي فلم يضربني المعلم لعدة أيام بل إنه ضرب أحد لداتي حين شكوته إليه ظلماً، حتى زملائي أخذوا يحيطونني كل صباح وهم يسألون عن الجنازة، والميت، والغسال والقبور، وأنا أروي لهم القصص التي كان يمدني بها خيالي الطفل، وحكايات

جدتي عن الكلب الأسود الذي ظل ينبح ثلاث ليال متتالية قبل وفاة عمي، وأضيف إليها الجديد كلما أعدتها، وهم لايملون سماعها أكثر من مرة.

وبعد أيام، وكما يبلى أي شيء بليت حكاية عمي وفقدت من حولي ذلك الاهتمام الذي أحطت به فترة من الزمن.



(٣)

لاأعرف بالضبط كم كان عمرى آنذاك بل لا أعرف حتى الآن كم هو عمري في هذه اللحظة، وإن كنت أعرف أنني أبدو أصغر من سني الحقيقية، لأنني ولدت «سباعياً» لم أكمل نموي داخل رحم أمي، كما أعرف أنني ولدت يوم عرفة، وأن حركة البعير الذي كانت تمتطيه أمي للحج هي التي ربما عجلت بخروجي إلى هذا الكون، كما أعرف أن هذه المدرسة التي كنت أذهب إليها لم تكن هي دار العلم الأولى في حياتي، بل سبقتها، داران، كتّاب للبنات، أرسلت إليه أول الأمر لأفك الحرف، ثم نقلت منه بعد بضعة أشهر حين سألتني أمي: ماذا تعلمت حتى الآن؟فأخبرتها أنني تعلمت سورة «لاشيون عليها» فضربت على صدري مستغربة كيف أنني لم أتعلم سورة «الحمدو» حتى الآن.. وحين نقلت إلى كتّاب آخر للأولاد استطعت أن أحفظ الحمدو وغيرها، ولكني لم أنس أبداً سورة (لاشيون) هذه ابداً، وحتى الآن أستطيع أن أردد كما فعلت قبل أكثر من ستين عاماً:

«ألف لاشيون عليها.
والباء واحدة من تحتيها
والتاء اثنين من فوقيها».

وبعد سورة الحمدو ــ لاقبلها ــ تمكنت من فك الحرف، أي أنني تمكنت من التفريق بين الباء والتاء، وإن استعصى علي تذكر الظاء «كما في ظبي» لمدة طويلة ولقد اكتشفت في وقت مبكر أن السبب في ذلك هو عدم وجود أي ظبي في المنطقة حولنا ــ أو وجود أي إنسان بإمكانه أن يصفه لي ــ ومع ذلك فقد تمكنت من أن أمضغ ذلك الحرف بطريقة لايكشفها الأستاذ، وكلما مرت كلمة بها ذلك الحرف مضغته كما لو كنت ألثغ والغريب أني كنت أتذكر الطريقة التي اخترعتها لنطقه ولا أتذكر الطريقة التي ينبغي أن ينطق بها.

ومن أبجد هوز.. إلى حكاية الجدي الذي عكر الماء على الاسد والغراب الذي قلد البومة ــ على ما أظن، كنا ننتقل في خفة بعد أن أقسم المعلم أن لايقفل الكتّاب ذلك الصيف قبل أن ننتهى من قراءة الحكايات الخمس التي اختارها لنا والتي تثبت أننا فككنا الحرف فكاً لا رجعة فيه.

وفي نهاية ذلك العام الذي هو سابق للعام الذي التحقت فيه بالمدرسة الأهلية التحضيرية ـ احتفلنا بفك الحرف ـ احتفالاً مهيباً ـ وزعت فيه قطع من الحلوى مصنوعة من السكر والدقيق ومصبوغة بلون أحمر. «كانوا يسمونها حلاوة بتاسة». وسرنا في الزقاق الضيق من باب الكتاب إلى البازان المجاور في موكب ظللت أتذكره كلما رأيت أحداً يلبس «روباً» جامعياً من تلك التي انتشرت هذه الأيام.

ولقد أثبت عام الكتاب هذا أنه حاسم في حياتي المدرسية التالية إذ أنه مكنني من البدء في قراءة كتاب القراءة الرشيدة، الذي نطقته أول مرة (القراءة الخشبية) على مابين الكلمتين من بعد، ولسبب أيضاً لم أكتشفه بعد.

وعندما التحقت بهذه المدرسة التحضيرية الأهلية، في العام الذي توفي في نهايته عمي، اكتشفت الفرق الكبير بين الكتاب والمدرسة، فالأول كان عبارة عن غرفة واحدة فقط بينما الأخيرة عبارة عن ثلاث غرف وفناء وعدد المدرسين هنا يزيد مائة في المائة عما كان عليه في الكتاب إذ يبلغ مدرسين بدلاً من واحد لهذا كان أحد الفصول الثلاثة يدار دائماً برئيس الفصل. وكان النظام

المتبع في ذلك هو على النحو التالي: يوزع المدرسان في الحصة الأولى على الفصلين الثاني والثالث و يبقى الفصل الأول خالياً يديره رئيس الفصل، ثم ينتقل أحد المدرسين إلى الفصل الأول في الحصة الثانية و يدار ذلك الفصل الخالي برئيسه وهكذا.. وفي بعض حالات الطوارىء كتلك التي يزورنا فيها بعض الحجاج الأثرياء للتبرع للمدرسة، يكلف أحد التلاميذ في الفصل الثالث من كبار السن، بالتواجد في فصلنا على أساس أنه مدرس لا طالب..

وكان الشيخ إسحق الذي هو مدير المدرسة وصاحبها، أحد المدرسين الاثنين فيها، يتواجد في الفصل الثالث لأن الضيوف عادة يطيلون الوقوف هناك و يسألون التلاميذ بعض الأسئلة المستعصية في التجويد، وكان هو حريصاً على أن يوجه الأسئلة إلى من يظن به خيراً من التلاميذ حتى لا تبوء الزيارة بالفشل.



(٤)

لم يكن في أسمائنا يومذاك شيء مستغرب فأغلبها مما حُمِّد وعُبِّد و بعضها أسماء أنبياء وملائكة وصالحين ـ ولكن داخل المدرسة لم نكن ندعى بها ـ وإن شئت الدقة لم يكن بعضنا يدعى بها، إذ أنها تتحول بقدرة قادر إلى، أبو طويلة، الهبلُّو، أزرق العينين، و يضاف إلى هذه عند الغضب الشديد لقب آخر فيصبح صاحبه «أزرق العينين عدو المسلمين» و بعد أشهر يعرف بيننا بأنه «عدو المسلمين» فقط لاغير، كما أن الهبلو تلازمه تلك التسمية حتى ننتقل إلى مدرسة أخرى ليست تحضير ية أهلية ـ وإنما هي أهلية فقط ـ فيصبح اسمه «الدُّهل» ـ كما أطلق عليه هناك ـ ولم أتصور يومها أن أحمد الذي هو الدهل سيدعى بهذا الاسم طيلة حياته، ولكنني اكتشفت حين وفاته مؤخراً أن اسمه قيد في جداول مرتبات عمال مصنع الكسوة بمكة هكذا: أحمد الدهل «فراش»، وأغلب ـ وإن شئت كل هذه الأسماء ـ كانت لها دلالاتها في أنفسنا وكانت معانيها معروفة على وجه التحديد أو على وجه التقريب إلا لقباً واحداً كان يدعى به زميل لنا اسمه سفيان.. كان يسميه الشيخ إسحق «النطفة

الحرام» ولما لم يعلم أحد معنى النطفة تلك الأيام، فقد استبدلها الصبية تدريجياً بكلمة أخرى،فأصبح اسمه كلمة قذف من الناحية الشرعية.

وسفيان هذا لم ينل لقبه المشهور بدون عناء،بل كان يعمل من أجله طيلة ساعات الدرس، وفي أوقات الراحة، وبعد ساعات المدرسة إلى أن يأوي إلى بيته، ولربما استمر في ذلك داخل منزله وحتى خلال نومه.

كان يحضر إلى المدرسة وجيبه ملآن بنبات صغير الحجم كان يسمى يومها «النبق».. وما أن تبدأ ساعة الدرس الأولى حتى يبدأ هو في التهامه، ومن ثم قذف بذوره مغافلة على من بالفصل واحداً بعد الآخر، بما فيهم المدرس بدون أن يجرؤ أحد على الوشاية به، وكثيراً ما جلد الفصل كله بسببه لأن المعلم لم يكتشف الفاعل الأصلي ولم يدل عليه أحد، وبين ساعات الدرس كان يجرب قوة الألواح التي نكتب عليها، بأن يضرب أحدها بالآخر حتى يفلقه،ثم يتركه صريعاً وسط الغرفة.. ويبدأ هواية التحرش بالآخرين،فيقف في ركن لايرى فيه حتى إذا أقدم أحد الصبية مسرعاً مد أمامه إحدى ساقيه فيعثر على الأرض ثم يبدأ العراك وهو منتش،يجرب كل يوم فناً من فنونه في القتال.

وكان الشيخ إسحق يحضر إلى المدرسة لابساً ثوباً أبيض عليه «سترة» بيضاء، ومن فوقهما جبة رمادية اللون، وعمامة، وكان يطوي الجبة و يضعها داخل صندوق صغير كان يحفظ فيه بعض أنواع الطباشير الملون،و بعض الوسائل التعليمية الأخرى بما فيها عصاه، ولايعرف أحد كيف تسلل سفيان إلى هذا الصندوق ــ ورمى ثقاباً فوق الجبة، فأحدثت ثقباً فيها بحجم الريال الكامل «المجيدى» وبالرغم من أن أحداً لم يره يقوم بتلك المهمة، إلا أن الجميع افترضوا أنه هو صانعها، وقد طرد يومها من المدرسة ثم أعيد بعد ذلك،كما أعيد عدة مرات بعد أن توسط والده لدى الشيخ إسحق..

ولقد شوهد أكثر من مرة يقف خلف الشيخ هذا و يعقد ذؤابة عمامته عقدة كبيرة بدون أن يشعر الشيخ بشيء، حتى إذ سار ضحك الصبية منه، وفي مرة أحضر حبلاً طويلاً وربط بأحد طرفيه حجراً وبالآخر مشبكاً ــ ثم شبكه بطرف ثوب شيخنا ــ وانصرف ــ وظل هذا يسير والحجر من خلفه يزحف محدثاً صوتاً غريباً، وبالرغم من كل ذلك فقد استمر معنا حتى العام الثالث حيث وقعت الواقعة الكبرى.

ولو كان لي أمر لأرّخت بذلك العام كما كان الناس يؤرخون ــ بعام الفيل «فيل الشريف المشهور» وعام السيل الكبير، وعام الرحمة «أي الموت الجماعي» ولسميت ذلك العام «عام الزير» والزير هذا ليس من ذرية الزير سالم، بل هو إناء فخاري كبير يتسع لما قد يصل إلى عشرين جالوناً من جوالين هذه الأيام.. جرت العادة أن يملأ بالماء وقت العصر، حتى يبرد طيلة الليل ثم يشرب منه الصبية، مستعملين كأساً مربوطة في أذنه بسلسلة رفيعة،ومقفول عليها بقفل صغير منعاً للحوادث.. وبالرغم من كسر القفل عدة مرات.. مما نتج عنه سرقة الكأس إلا أن ذلك لم يجعل من الزير موضوع بحث أو تعليق، أما هذه المرة فالأمر مختلف جداً.

والقصة كما استعدتها ــ لضعف الذاكرة ــ من الثقاة من أهل الحي ــ أقصد من بقي منهم على قيد الحياة ــ سارت على النحو التالي: حضر الشيخ إسحق صاحب المدرسة ومديرها.. الخ صباح يوم من الأيام إلى المدرسة كالعادة.. وعندما دخل إلى فنائها فوجىء بأن الزير غير موجود في مكانه، الأمر الذي لم يتوقعه ولم يخطر له على بال، فوقف بضع دقائق محملقاً، في البقعة الخالية،

النبدية، حيث كان يوجد المختفي ــ الزير ــ ولما لم توح إليه بشيء تركها ودخل إلى غرف الدرس واحدة بعد الأخرى، لعلّه يجد ما يدله على ما حدث، ولمّا يئس من ذلك، بدأ هياجه التدريجي، وظل يدخل ويخرج من غرفة إلى أخرى بدون أية نتيجة.. ومن ثم خرج إلى الشارع ووقف هناك.. وعندما مرّ به بعض سكان الحي أخذ بيدهم وأدخلهم إلى الفناء مشيراً إلى الموقع الذي أصبح يعرف فيما بعد ــ بموقع الزير ــ ولما كان بعضهم خالي الذهن، ولم يسبق له أن شاهد الفناء وما فيه ــ فقد بدأ بالاستفسار والشيخ يرد و يشرح مؤكداً أن الفقيد كان في موقعه حتى يوم أمس شارحاً كيف كان آخر عهده به.. الخ وعندما بدأ التلاميذ بالحضور وقف يستقبلهم على مدخل المدرسة سائلاً كلاً منهم على حدة: «هل رأيت الزير؟» فإذا مارد بالنفي ــ وكلهم فعل ذلك ــ أمره بفتح يده وضربه عصوين اثنتين لاهما بالقاسيتين ولاهما بالفاترتين، حتى إذا انتهى من ذلك دخل إلى الفناء مرة أخرى حيث تجمهر الصبية، ومن ثم سألهم سؤالاً واحداً موجهاً إليهم معاً ــ هل رأيتم الزير؟ ولما لاذوا بالصمت أعاده فنفوا علمهم بشيء، فظل في مكانه يفكر وقد بدأت آثار الفاجعة تتضح على وجهه، وبعد قليل أمرهم بالانصراف إلى بيوتهم، وظل هووالمدرس الآخر داخل

المدرسه بعد أن أغلقا بابها الخارجي ـ يفكران بعض الوقت ـ ثم التفت الشيخ المدير وقال: هو ليس غيره. لايمكن أن يكون إلا سفيان..ابن ال.. مستعملاً «كلمة القذف التي سمع الصبية يستعملونها ـ وعندما لفت المدرس نظره إلى أن الزير أكبر حجماً» من سفيان ولايستطيع رفعه من مكانه.. أجاب بأن للشيطان أساليب لاتخطر على بال غيره.. وأنه متأكد من ذلك.

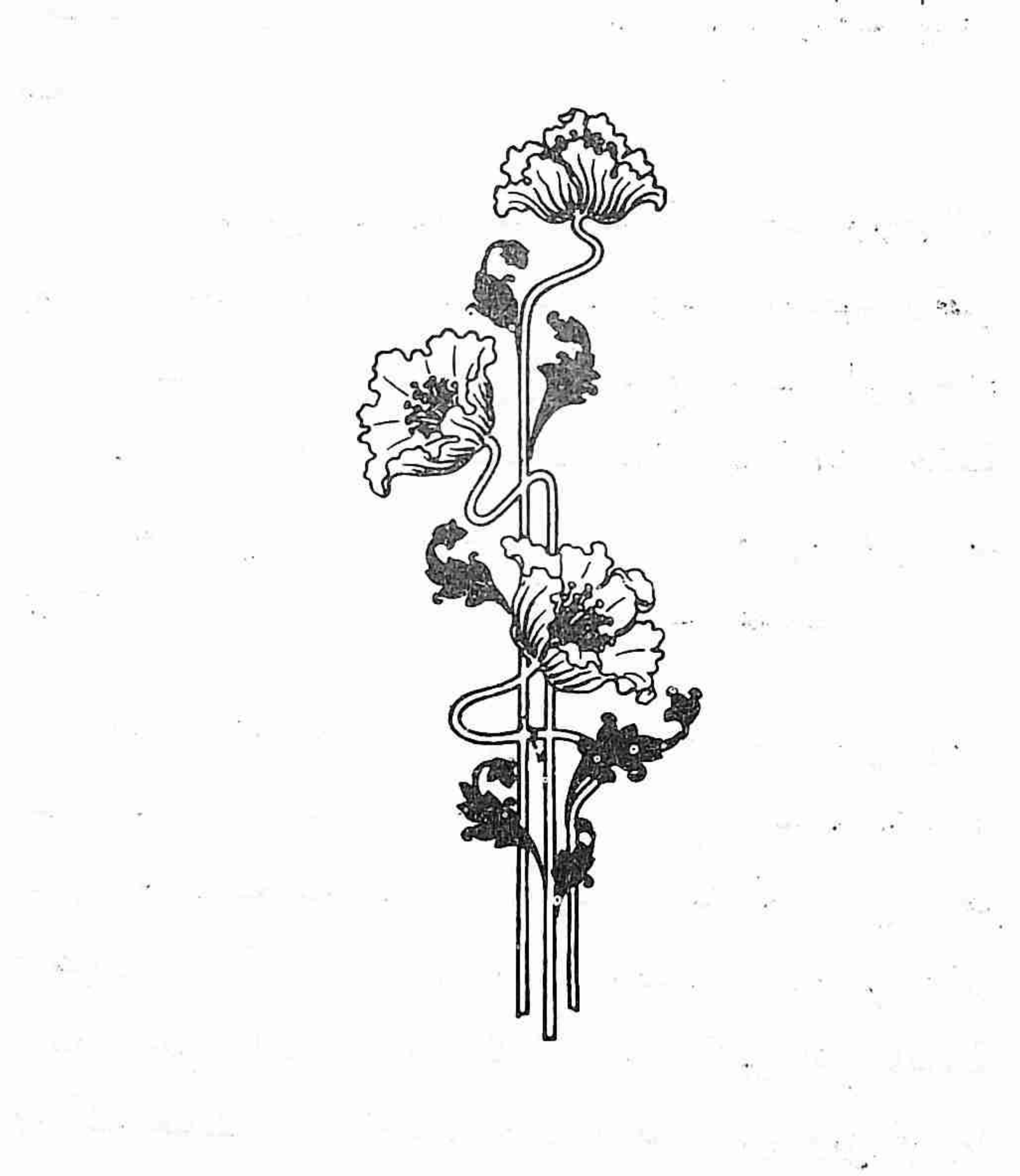
وظلت المدرسة مقفلة ليومين تم خلالهما عقد عدة اجتماعات كان آخرها بمنزل والد سفيان، الذى استبعد أن يكون ابنه مسئولاً عما حدث، ومع ذلك فقد اقترح أن يتبرع الجميع كل بما تجود به نفسه لشراء بديل للفقيد العزيز ـ وبدأ هو التبرع ـ ولكن الشيخ إسحق بعد أن فكر في الأمر أجاب بأنه يقبل ذلك الحل ولكن بشرط أن لايعود سفيان إلى المدرسة نهائياً.. ولما اعترض الأب موضحاً أن ذلك القرار غير عادل.. وأنه إذا أصر الشيخ على رأيه يسحب تبرعه.. وحاول الجميع إقناع الشيخ بالعدول عن رأيه ولكنه أصر ـ وانفض الاجتماع بدون أن يصل المجتمعون إلى حل.

وبعد صلاة العشاء من ذلك اليوم اجتمع وجهاء الحي بالمسجد ــ مسجد الحي ــ وتداولوا الأمر والأضرار التي لحقت بهم من جراء ترك الصبية في الشارع طيلة يومين، وقرروا التضحية بسفيان، وجمعوا المبلغ المطلوب، وسلموه للشيخ الذي توجه صبيحة اليوم التالي إلى مصنع للفخار وعاد مبتهجاً يتبعه حمال نوبي يحمل فوق رأسه القادم الجديد، الذي بدا أكبر قليلاً من سابقه وأنصع بياضاً منه..

وبالرغم من أن الأمر قد حسم بقرار الحي ووجهائه، إلا أن البعض ظل يتوسط لسفيان، وكان توسطهم يرفض دائماً، ليس هذا فحسب بل إن الشيخ قد تنبأ إثر واحدة من تلك الوساطات بأن سفيان سينتهي نهاية تشبه خاتمة أحد صاحبي السجن ليوسف الصديق، ولم يزد على ذلك مما أثار كثيراً من التكهنات حول حقيقة مقصده..

واستجلاء للحقيقة، التي أغرمت بها في مقبل أيامي ــ وبعد سنوات عدة وخلال اجتماعي بالمتهم، المتنبأ له بالنهاية المفجعة ــ سألته إن كانت له يد في الأمر فاعترف بأن كانت له يد، وحجر أيضاً.. وشرح لي الأمر بأنه أدخل ذات يوم من الأيام حجراً كبيراً إلى المدرسة وتركه هناك حتى العصر، حيث تسلق السور ومن ثم رما

الخنجر في وسط الزير الشهيد، وكان خالياً من الماء، ففلقه اثنتين، ثم أعاد الكرة فجعله أربع قطع، ثم وضعها واحدة بعد الأخرى على السور حيث تسلق خارجاً مع غروب الشمس ونقل تلك الأشلاء إلى خرابة قريبة من المدرسة.. وأضاف أن تلك الأشلاء ظلت هناك لعدة أعوام.. ثم انقطعت أخبارها عنه..



(٥)

بالرغم من كل ماجرى وما سيجري من سفيان في مقبل الأيام، إلا أنني لم أشارك الجميع الشماتة فيه والمسرة لرحيله من المدرسة، إذ كان هناك ما يشدني إليه، كما أني كنت للحقيقة معجباً به ولكن في الخفاء، وبالرغم من أية تفسيرات مغرضة قد تقال عن هذه العلاقة بين أكثر الصبية شقاوة وأكثرهم وداعة في عصرنا، إلا أن الحقيقة تظل هي الحقيقة، ويبقى سفيان مصدراً للإثارة، وسببا في الاكتشافات الكبيرة التي تمت على يديه، ولئن ذكر الناس اليوم «ماجلان» البرتغالي لمغامراته البحرية، فإن سفيان المكي لأولى الناس بالذكر لمغامراته البرية، ألم يكن هو الذى نبهني إلى أن الدنيا ليست هي ذلك الشارع الضيق الذى أسير فيه، والمحصور بين جبلي أبي قبيس والسبع البنات، مع ما يتفرع عنه من أزقة أكثر ضيقاً، تنتهي كلها إما يميناً أو شمالاً مصطدمة بهذا الجبل أو ذاك..؟ ألم يأخذني أول مرة خلال سقيفة الصفا المظلمة إلى العالم الرحب الذى انتهى بعد سير ساعات إلى «محبس الجن» مروراً بريع اللصوص، وطلعة أبي لهب وغيرها..؟ صحيح أني بت ليلتها محموماً، من

طول ما مشيت في الهاجرة وأن قدمي كادتا تسقطان في آخر المطاف، إلا أن لذة الاكتشاف وحلاوة العودة مرة أخرى إلى المنزل تجبان ما بينهما من متاعب، ولئن كان لي عتب عليه في أول رحلة استكشاف قمنا بها معاً فذلك لأنه حين وصولنا إلى «محبس الجن» في أعالي مكة ـ ولا أدري أي جن أولئك المحبوسون هناك ـ اقترح علي أن نجلس في مقهى صغير،إلا أن صاحبه رفض لأننا صغار في السن، فما كان منه إلا أن ترك المقهى وأنا أخب خلفه،ثم عاد بعد قليل واتصل هذه المرة «بصبي» صاحب المقهى زاعماً أن والدتنا تجلس في شعب خلف المقهى ولا تستطيع لأنها أنثى القدوم معه، وهي بحاجة إلى ماء وشيء من الشاي لأخذه إليها،ولما وافق المذكور على طلبه دفع سفيان قيمة الشاي ٥ق وأخذه ومن ثم جلسنا على الأرض بعيداً عن المقهى نستمتع بأول جلسة تتاح لمثلي على هذا النحو،حتى إذا هممنا بالعودة قام إلى الإناء والأقداح الصغيرة فأحالها جميعاً إلى قطع فتات، وسحبني من يدي ثم سار، تلك كانت حادثة لاداعي لها من وجهة نظري : ولكن...

ومرت أيام لم أره فيها.. ولعل ذلك كان خيراً على أي حال، ثم عاد وفي جعبته اكتشافات أخرى ولكنها أقل أهمية، ولم تترك في نفسي ذلك الإعجاب الذي أحسست به بعد ليلة محبس الجن. إلى أن جاء يوم جمعة لا أنساه.. طرق الباب علينا ضحى ــ قبل الظهر ــ وأبلغني أنه يريد أن يريني شيئاً لم أر مثله في حياتي، فوافقت وسرنا بضع دقائق، ثم انحرف يساراً وأدخلني من الباب الخلفي لمبنى كبير كان يسمى «الحميدية» يقف دائماً على بابيه الأمامي والخلفي، جنديان مدججان بالسلاح بالرغم من أنني لم أعرف معنى (مدججان) تلك الأيام، وفي البهو أطلعني على صور كانت معلقة داخل براويز زجاجية ومكتوب تحت كل منها اسم صاحبها، ولم أجد في الأمر تسلية،حتى عندما أشار إلى مجموعة من الأسماء والصور التي عرفتها مكة بأفعال أصحابها ممن يمكن أن يسموا «عصاة القرن الرابع عشر».. لم أكتشف الشيء الذى لم أره في حياتي من قبل ولكنه أمهلني،وأخذ يسير بي ثم جلسنا على السلالم الموصلة إلى الدور العلوي، حتى إذا سمعنا ضجة قادمة أخذني إلى الشرفة المطلة على المسجد.. وعلى الباب الأمامي للمبنى وهناك رأيت

بالفعل مالم أره من قبل، رأيت إنساناً تقطع رأسه بالسيف.. تحت ناظري. ولو كنت واقفاً على رمل لساخت قدماي كما يقولون في الروايات، ولكني كنت واقفاً على صلب فاكتفتا بالاهتزاز المستمر حتى وهنتا فسقطت وأنا في شبه غيبوبة.. و يومها تأكد لدي أن ماقيل عن سفيان.. .

لم تعلم أمي بما حدث وأنى لها ذلك..؟ إلا إذا أردت منها أن تلطم صدرها لطمة تاريخية تفوق كل ماسبقها من لطمات. لقد أعلمتها بأنني أصبت بدوار وقيء، وقد حدث ذلك بالفعل، وأنني أتحسن تدريجياً ولا داعي للقلق،فهزت رأسها كما كانت تفعل دائماً عندما تعجز عن التعليق على موقف أو حدث. ولو كنت من النوع المبالغ لتحدثت عن الأحلام المفزعة التي انتابتني ــ بعد يوم الجمعة المشهور ــ ولكن شيئاً من هذا لم يحدث.. والحلم التوحيد الذى رأيته تلك الليلة كان لصاحبي ــ سفيان ــ وقد بدا فيه وكأنه هو الذي يتقيأ لا أنا.. مما سبب لي راحة نفسية، يوم السبت الذي تلا يوم الجمعة المذكور.. ومر يوم و يومان وأنا لم أتخذ القرار المتوقع من مثلي تجاه سفيان.. بل اتخذت قراراً آخر أكثر حكمة ألا وهو. أن لا رحلات.. إلا بعد معرفة «إلى أين» ؟.

ولابد أن «إلى أين» هذه قد وفرت عليّ كثيراً من المواقف التي ربما سببت لي القيء، وربما ماهو أسوأ من القيء.. وإن كنت أحس الآن أنني حرمت نفسي كثيراً من اكتشافاته ومن صحبته.. المثيرة.. وبالرغم من ذلك فقد كنا نتقابل في «البرحة» المواجهة لمنزلنا من وقت لآخر. وكان يقصّ بعض ما كان يفعله في وقت فراغه، وقد أصبح وقته كله فراغاً بعد أن طرد من المدرسة.. على أن جزءاً من نشاطه آنذاك كنت أشاهده بنفسي يومياً، فلقد قرر أن يضرب جميع تلاميذ الفصل علقة.. واحداً.. بعد واحد بطبيعة الحال.. لشماتتهم به، وبالفعل فلقد أنجز سفيان ماوعد، وضربهم جميعاً على مرأى مني، كل يوم كان يصطاد واحداً أو اثنين ويذيقه مالم يذق فى حياته.. من لكم.. ورفس.. ونطح وخلافه.. وقد كنت خلال تلك الأيام في حيرة شديدة... ياترى هل سأنال نصيبي مثلهم..؟ أم أن سفياناً سيقدر حفاظي على العلاقة به.. ويعتبرني مستثنى منهم.. على أن الأمر قد حل بطريقة لم أكن أتوقعها.. فلسبب لاأعرفه قرر سفيان أن يؤجل يوم ضرب ابن العم عمر إلى النهاية. وقد أثبت قراره ذلك حكمة وبعد نظر إذ أنه بات ليلته تلك التي ضرب فيها ابن العم عمر في مركز الشرطة بالصفا حيث بصق عليه

«مراد أفندى» الضابط المسؤول وركله برجله، ثم أدخله في غرفة مظلمة جزاءً له على مافعل، وقد كان منظراً مثيراً ذلك المنظر الذى اقتيد فيه سفيان مربوط اليدين بحبل وخلفه جمع من الصبية واثنين من معتوهي الحي يصيحون وكأنهم في عرس، وعندما عاد في اليوم الثاني من خلال سقيفة الصفا المظلمة حتى في النهار كان يمشي في الظل.. وتحت النوافذ لا كما اعتاد في السابق، لو رأيته يومها لعرفت ماذا تعني جملة فلان كسرت شوكته؟ فلقد كان عقرباً ذا شوكة هائلة.. ثم كسرت فجأة.. ولم يستعدها إلا بعد سنوات طويلة عندما أصبح حجاراً، يسوق أمامه رتلاً من البهائم المحملة بالحجارة وبيده «شوحط» يردعها به، وكأنه قائد جيش مظفر يعج بالمقاتلين وبالسلاح.



(٦)

لقد تيتمت مرتين ياولدي ـــ هكذا قالت الخالة أسماء ـــ ضاربة على صدرها مضيفة.. كل الناس يتيتمون مرة إلا أنت... تحت أي نجم مشؤوم ولدت ياولدي؟!

كان صوتها حاداً أشبه بصوت بوم.. ومع أنني لم أحس باليتم إلا بعد حوالي عشرين عاماً من ذلك التاريخ عندما ودعت الوالدة آخر وداع إلا أنها أشعرتني بتلك الولولة أنني تعس حقاً..

كنت وأمي في زيارتها مرة من المرات ..فهي صديقة قديمة.. وطبيبة الحي .. أيضاً.. تعالج المغص.. والحمى.. دائماً بطريقة حاسمة،وتكوي الأقدام وأحياناً الجنوب عندما يصاب المرء بداء الجنب.. ولايشك أحد في نخوتها وحبها للناس، والمساعدة في تفريج كرباتهم.. وكانت أمي تلجأ إليها.. لهذه الأسباب مجتمعة ولأنها تقرأ لها «الودع» وهي التي تنبأت بأنها ستغرق مرتين، كما ظهر في الودع، أي أنها ستتزوج زوجين ثم تفقد الزوجين واحداً بعد الآخر.. كان ذلك بعد طلاقها ـــ طلاق أمي ـــ من زوجها الأول.. «أي الثالث» عددياً ـــ ولقد أصبح للخالة أسماء تأثير كبير في حياتنا ـــ حياتي أنا شخصياً

ـ فقد أصبحت المستشارة الرسمية لنا بعد وفاة العم.. وكانت أمي تزورها بصفة مستمرة،مرة على الأقل كل أسبوع،تروي لها ماحدث ـ وتسألها تفسير الأحلام أحيانا.. كما كانت تتداول معها في أموري أنا بالذات ـ في المدرسة وفي المستقبل.. في العمل الذي علي أن أعمله.

وبالرغم من ولولتها ذلك اليوم على تيتيمي المتكرر،إلا أنني في الحقيقة أصبحت أحسن حالاً بوفاة عمي ــ الذي هو زوج أمي ـ أيضاً.. وكانت أولى بشائر ذلك التحسن انتقالي من الدكة الصغيرة الملقاة جانباً على سطح بيتنا إلى الدكتين الرئيسيتين هناك، واحتلالي مكان عمي والنوم بجانب أمي.. والاستماع بحكاياتها الحلوة دائماً عن الجن والمردة.. والفرسان الذين ينقذون فتيات أحلامهم على ظهور الجياد التي كانت تطير فوق السحاب.. كل ذلك ويدها الحنون تعبث برفق بشعري الكث حتى أنام.. على أحلام وردية.. تختلط فيها حوادث اليوم بحكايات المساء فى توافق.. فريد.

وشيئاً فشيئاً عرفت الكثير من أمي ... عن الحياة.. وعنها.. أيضاً.. عن زوجها الأول «عرفان بك» الذي كان يركب حصاناً.. و يعمل دعوجياً... أيام زمان والذي كان «يملأ ثو به» بجدارة حسب تعبيرها.. والذي طلقها أخيراً بالرغم من تعلقها به.. لأنه كان ــ حسب تعبيرها ــ بغلا أي غير قادر على الإنجاب في محاولة لإلصاق تلك التهمة بزوجته.. «أمي».

وعندما سألتها كيف عرفت أنه هو السبب لا هي أفادت بشيء من التأكيد أنها استشارت عارفتين.. من عارفات الحي.. وعلقت حجاباً مضمون النتائج.. ليس ذلك فحسب،بل إن إحدى العارفات قد حلمت لها حلماً فسرته بأنه سيكون لها عدد من الأبناء.. و يبدو أن أمي خلال رواية ذلك الحلم تنبهت إلى أنه ليس لديها من طفل سواي ــ مما قد يعني ــ أن حالة الغرق الثالثة ــ أي الزواج الثالث ــ التي لم ترد في النبوءه ستأتي وسيأتي معها المزيد من الأطفال.. مما حداها إلى النظر إلي نظرة غامضة تلتها بقولها : الذي في الغيب أحلى ــ ومع أنها لم تر الذي في الغيب حتى وفاتها ــ أي أنها لم تتزوج ــ كما ظهر في الودع للمرة الثالثة ــ إلا أنها

ظلت حتى قبيل وفاتها تتصرف كما لو كانت تتوقع القادم السعيد الذي ستختم على يديه أيامها.

خلال تلك الأمسيات عرفت أن زوجها الثاني ـ الذي هو والدي ـ كان من طلبة العلم وكان يلبس عمامة وجبة.. ولم يكن هناك ما يعيبه على حد تعبيرها ولكنه كان كبير السن ـ ربما في سن والدها أو أكبر ـ اضطرت أن تتزوجه بعد «عارف بك» لأن الأنثى لاتستطيع أن تعيش بدون «رائحة رجل» كما ذكرت لي.. ولم تدم عشرتها له طويلاً فقد مات بعد سنوات قليلة تاركاً لها هذا البيت الذى نسكنه.. وابناً وحيداً هو أنا.. ويبدو أن نظرية رائحة الرجل هي التي أقنعتها بزواج عمي، بعد وفاة الوالد.. إذ لايبدو أن له من المزايا شيئاً خلاف تلك الرائحة، كما كان على النقيض من الوالد فليس هو بطالب علم.. ولا لابس جبة.. بل كان جزاراً.. ولابسا ثوباً وحزاماً حول وسطه كما كان يفعل من ليس بطالب علم.



ما إن انتهت «العدة» الشرعية وأصبحت أمي في حل من أي قيد يمنعها من الخروج أو السفر حتى قررت.. أن تزورني المدينة.. وكالعادة استشارت الخالة أسماء التي قررت أن ترافقنا في تلك الزيارة.. ولما كانت الجمال هي الوسيلة الوحيدة المتيسرة فقد أخذت على عاتقها مسئولية البحث عمن يمكن أن يكون زائراً من أهل الحي يمكننا أن «نقطر» جملنا في قافلته.. وقد وجدت بالفعل أسرة كبيرة عازمة على السفر في قافلة من خمسة جمال.. ولسبب لم أتبينه آنذاك لم يعجب توقيت تلك القافلة الخالة أسماء.. فصرفت النظر عن الأمر.. ثم بدأت البحث من جديد إلى أن وجدت قافلة تعتزم السفر في موعد ارتضته.. ولما كانت الاثنتان من النوع المؤمن بكثير من عادات تلك الأيام.. فقد أحضرت الخالة أسماء إلى منزلنا يوم السفر شخصاً لم أفطن لسبب وجوده أول الأمر.. وخاصة أنه انفرد بغرفة داخلية نائية.. وبعد أن استقر به المقام هناك وقدم له الشاي كالمعتاد.. بدأ يرفع عقيرته بما يشبه الغناء.. والخالة أسماء تتردد بين النافذة المطلة على الشارع وبين الدهليز الطويل الموصل إلى الغرفة التي احتلها المذكور.. وبالتدريج أخذت أرتاح

لصوته.. واتبين الكلمات التي يترنم بها.. وكلها تتعلق بالزيارة... والصلاة والسلام.. عليك.. ولقد استجمعت شجاعتي آخر الأمر وسألت مشيراً بإصبعي إلى النافذة التي تتردد عليها وإلى غرفة المذكور.. كمن يحاول أن يعرف العلاقة بين الاثنين أولاً.. ومعنى وجود المذكور ثانياً.. والذين عاشوا تلك الأيام يعرفون أن الشادي الذي احتل منزلنا ذلك الصباح هو «المزهّد» .. والمزهد لمن لايعلمون كان يزهد الناس في الدنيا بصوته الرخيم، ويشوقهم إلى زيارة المدينة.. وتردد الخالة بين النافذة والممر هو للتأكد من أن أحداً من محاربي البدع لم يسمع صوت المزهد.

وبالرغم من أنني استغفرت الله حين بلغت رشدي عن كثير من تلك البدع التي كنت أزاولها في حماية الوالدة والخالة أسماء.. إلا أنني لم أنس بعد ــ وأستغفر الله ــ صوته الناعم الحنون وهو يصيح.. الصلاة والسلام عليك..

وفي عصر ذلك اليوم اقتاد «جمّالنا» عطية جمله وعلى ظهره الهودج المعروف «بالشقدف»... وقد استوى بالمرأتين كل منهما على جانب.. وأنا بين الاثنتين.. وقد

كانت اللحظات الأولى لحظات خوف وحوقلة.. فإحساس المرء وهو على هذا الارتفاع الشاهق فوق ظهر البعير.. إنما هو إحساس المتوقع للسقوط في أية لحظة.. ولكن بمرور الدقائق بدأنا نحس بالسكينة،فلم يجفل البعير ولم يحدث ما يدل على أننا في الطريق إلى الأرض.. كما أن منظر بقية القافلة حين التقينا بها خارج مكة بعث في نفوسنا الكثير من الطمأنينة.. والذي لم أتوقعه، أن أرى المزهد إياه مرة أخرى خارج حدود مكة.. وفي غفلة من أعين الرقباء يودعنا بصوته الحنون.. متمنياً للزائرين أن يكونوا من المقبولين.

على كشرة سرحاتي.. في مقبل الأيام.. وروحاتي وغدواتي بين هذه السهول أو تلك الجبال.. لم تعلق في أنفي رائحة كرائحة البعارين.. عصارى الأيام الاثني عشر التي قضيناها في الطريق بين مكة والمدينة حين كان يمرح صبيان القافلة خلفها.. أقصد صبياها.. أنا.. وسهيل.. ذلك الوقت من الأصيل.. وقبل أن يظلم الليل ونأوي إلى شقادفنا.. لقد كانت الأعشاب الجافة والجرادات الطائرة، والتي كنا نقفز حولها ونحن نتبع الجمال تمثل أحلى ما يمكن أن تمثله.. رحلات الاستكشاف ومغامرات الشباب.. وبالرغم من الكدمات التي أصيبت بها جنوبنا من النوم على ظهور الجمال...

ولدعات «القراض» التي كانت القاسم المشترك لكل استراحاتنا بين المحطة.. والأخرى.. إلا أن أحداً لم يشك أو يتبرم.. وكيف لهم أن يشكو.. وهم في رحلة.. إلى سيد البشر.

في تلك الرحلة اكتشفت من بين ما اكتشفت.. «هول الليل» الذي كان ــ على حد علم الخالة ــ يعترض القوافل في المساء ويحاول أن يضللها.. بأن يعترض طريقها.. مرشداً الجمالين إلى الطريق.. التي ينبغي عليهم أن يسلكوها محاولاً الظهور بمظهر الناصح الأمين على حين أن هدفه الحقيقي إيراد القوم إلى مهالكهم.. بل إنه لينصب في الخلاء مقاهي وهمية ترى القوافل أنوارها على بعد، ومن ثم تتجه إليها كما يتجه البدوي الضال إلى السراب ظاناً أنه ماء.. حتى إذا طال بالقوافل السرى اختفت تلك المقاهي.. وضلت الجمال بأحمالها..

الحوادث التي روتها الخالة أسماء عمن لقوا مصارعهم نتيجة لاحابيل «هول الليل» اللعين لا تعدّ ولا تحصى.. وهي لذلك نادراً ماتنام على ظهر البعير بل تظل متيقظة خوفاً من أن ينخدع الجمالون فنرد.. نحن وهم.. موارد الردى..

وفي واحدة من تلك الليالي ـ بين الصفراء ووادي النار ـ على ما أظن دوى صوت الخالة في الهزيع الأخير من الليل ممطوطاً.. حاداً.. هول الليل.. هول الليل.. لاتصغوا له.. فإنه كذاب،وكدت أن أقفز إلى الأرض من هول صراخها.. بعد أن استيقظت من أحلى منام.. وعبثاً حاولت الوالدة.. والجمال.. تهدئتها.. ولكن بدون جدوى،فقد استمرت في صراخها محذرة من شول الليل.. و ياله من هول.. ولم ينته الأمر حتى أوقف الجمالون القافلة وأناخوا بعيرنا وأخرجوا الخالة وهي ترتجف.. ثم كبوا على رأسها «شربة» ماء كاملة.. استطاعت بعدها أن تصغي لهم، وأن تعرف أن ماظنته هول الليل ماهو إلا صاحب المقهى الذى بتنا لديه ليلتنا الماضية.. لحق بنا ـ على بعير ـ بعد أن أكتشف أن أحد الأغطية التي استعملناها ترك على كرسي من كراسي مقهاه.. فخاف أن يتهم بسرقته حين نكتشف فقدانه.. فتبعنا.. مسلّماً الأمانة لأهلها كما قال..

ومنذ تلك الليلة توقفت الخالة أسماء عن الحديث عن هول الليل.. وإن لم تتوقف عن الحديث عن ماهو أهم منه.. مما يمثل بالنسبة إلي مجموعة من المفاجآت وحصيلة من المعلومات المثيرة.

(٨)

في الليلة الثامنة ــ وفي المحطة الثامنة ــ في طريقنا إلى المدينة وصلت القافلة إلى بدر.. ولم يكن أحد يتوقع شيئاً غير عادي في تلك الليلة... فقد وصلت القافلة قبيل المغرب وبركت جمالنا قرب واحدة من تلك العشاش المنصوبة على الطريق.. وفرشت البسط على الأرض وبدأ إخراج الزاد وإعداد الطعام كالعادة.. وكان في تلك الليلة يتكون من نوع من الثريد.. المصنوع من الخبز الجاف الذي حملناه من مكة.. مع كمية هزيلة من اللحم الجاف أيضاً.. وعقب العشاء حلت الخالة أسماء لفة كانت تحمل فيها ملابسها وأخرجت بعض مافيها ثم انتحت جانباً من العشة.. وبدأت تزين نفسها.. وتمشط شعرها وتدلكه بشيء من زيت «النارجيل» المخلوط ببعض الأعشاب.. وعندما ارتاحت لمرآه.. وضعت فوقه.. مثلثاً من القماش الأبيض ينتهي طرفاه بخيط يلف في مؤخرة الرأس يسمى «الشنبر» ثم «المحرمة» التي لفت فيها عقيصتها.. فاللفاعة البيضاء المطرزة الحواشي.. والتي كانت تسمى «المدوَّرة».. وبعد ذلك كله زججت حاجبيها واكتحلت.. حتى ليخيل إليك أنها مدعوة.. لعرس..

وعندما أوشك الناس أن يأووا إلى مهاجعهم أخذتني من يدي.. ويممت صوب الصحراء.. حتى.. إذا بعدت عن القرية وأصبحت أنوار العشاش.. بعيدة عنا آوت إلى كثيب رملي.. وجلست فوقه ثم أجلستني بجانبها وهي تنصت لما يدور حولها.. حتى إذا أوغل الليل.. بدأت تتحرك عند قدمي الكثيب.. ببطء ..وشيئاً فشيئاً أصبحت حركتها رقصة هادئة أولاً، ثم محمومة، كان يخيل إلي.. أنها تتم على نغم آت من بعيد.. أو دقات طبل أو دف.. واستمرت في دورانها وأنا جالس على الأرض مذعور.. أسأل نفسي.. هل جنت الخالة؟ هل أنا في حلم؟! حتى إذا انهكها الدوران المستمر.. جلست بجانبى ثم سحبتني من يدي عائدين إلى عشتنا.. وقد مضى من الليل نصفه على الأقل.. ولم تدهش الوالدة لعودتنا المتأخرة ولا لمنظر الخالة والعرق يتفصد من جبينها.. ولم أستطع أن أصبر أكثر من ذلك فسألت بإشارة من يدي.. مستفسراً عن حقيقة الأمر.. فاستمهلتني الوالدة.. حتى آوت الخالة أسماء إلى فراشها، ثم أخذت تشرح لي ما لم يخطر على بال.. سائلة في بداية الأمر هل سمعت دقات طبول..؟ فأجبت لقد سمعت دمدمة لاأعرف ماهي..؟ قالت رحمها الله: تلك التي سمعت هى طبول أهل بدر.. طبول الشهداء.. الذين قتلوا فى معركة بدر.. باستطاعتك

أن تسمعها دائماً.. عندما يكون القمر بدراً.. وخلال أشهر معينة.. من العام.. والخالة من القلائل الذين يعرفون تلك الأشهر.. وتلك الأيام ولهذا رفضت أن نسافر من القافلة الأولى لأن وصولها لايتوافق مع الأيام التي تعرفها.. وختمت حديثها طالبة مني الصمت وكتم الأمر لأن «المدينّة» لايؤمنون بوجود هذه الطبول ولايسمحون بالرقص على أنغامها.

لاأستطيع أن أتذكر الآن ماإذا كانت أحاسيسي رافضة أم قابلة لما سمعت وإن كنت.. قد ظللت أفكر فيما قالت لسنوات.. وسنوات.. حتى قرأت حين تقدمت بي السن قصيدة «ذي الرمة» التي تحدث فيها عن عزف الجن في الصحراء.. «للجن بالليل في حافاتها زجل» حافاتها.. أي حافات الصحراء.. مسكين ذي الرمة ومسكينة الخالة أسماء.. لم يعرفا شيئاً عن حركة الرمال في الصحراء.. وتساقط الرمال فوق بعضها.. وما تحدثه الرياح حين تحمل حبات الرمل من مكان إلى مكان.

نزلت السكينة على الخالة بعد تلك الرقصة المحمومة..فارتخت أعصابها واكتسى وجهها سحنة الرضا والشبع، كما اكتست وجوه كل من عرفت فى مقبل الأيام ممن حضرن حلقات الزار في بيتنا بمكة.. وكما

اكتست وجوه كل من شاهدت من فتيات وفتيان أوربا.. في مقبل أيامي أيضاً.. عندما قدر لي أن أشاهدهم.. وأشاهدهن.. في عطلات نهاية الأسبوع.. وأول العام.. وحفلات الزواج.. عندما تدير رووسهن قرعات الطبل.. والزمر.. ولولا أن تقبض نفوس هؤلاء وأولئك لقلت لهم.. إن من في أدغال افريقية.. ممن عرفت.. في رحلاتي الكثيرة هناك.. كن وكانوا يصلون لنفس الإشباع النفسي بعد ليلة صاخبة تدق فيها طبولهم بأنغام لا تفترق كثيراً عن أنغام أهل بدر.. وأهل الحي اللاتيني..

ربما كان الإنسان حيواناً مطبلاً ومزمراً.. كما هو حيوان ناطق.. ومفكر.. أيضاً.. لاأدرى!!.

وليس معنى سكينة الخالة.. الكف عن الكلام ورواية القصص والحكايات المثيرة.. أو اتخاذ القرارات المفاجئة بالنسبة لي.. والمدروسة والمخطط لها تخطيطاً جيداً بالنسبة لها.. فلم تنس أن تشرح لي قصة أهل «الفريش» والفريش قرية واقعة بين المسيجيد وأبيار علي.. ولماذا لازال أهل مكة يسمون المغالى فى الأسعار بأنه من أهل الفريش...؟ فهؤلاء ــ إن كنت لا تدرى

ـ كانوا آخر من يقطع الطريق أمام الحجاج قبيل وصوله إلى المدينة. ولئن نجا من قطاع الطريق في مستورة أو في الصفراء فسوف لاينجو منهم.. ومع أنني لم أشهد عليها تعمداً للكذب، إلا أنني لم أصدق حكايتها عن البدوي الذى شدخت رأسه بالنصف الأسفل من عمود الخيمة قبل سنوات وسنوات،لأنه تلصص مساء يوم فى الفريش ـ إياها ـ فلم تجد بدًّا من أن تضرب رأسه بأقرب ما وصلت إليه يداها.. من يدرى لعلها كانت ذات يوم ذات ساعد مفتول وعضل قوي..؟ بالرغم من أن مظهرها الآن لايدل على شيء من ذلك.

لقد كان آخر قرار اتخذته قبل دخولنا إلى المدينة المنورة، وبعد أن تمت إجراءات التدقيق «بباب العنبرية» من قبل الشرطة المكلفة بذلك أن أمرت الجمال أن يسلخ بعيرنا عن القافلة وأن يسير في الاتجاه المضاد لسير بقية الجمال.. ولم نكتشف الحكمة من ذلك حتى وصلنا إلى منطقة قريبة من المسجد النبوى من الناحية الجنوبية.. إذ أمرت السائق «أقصد الجمال» بالوقوف ومن ثم حلّت عقدة في لفاعها وأخرجت خطاباً كانت قد طوته عدة مرات.. حتى انكمش وصار قطعة صغيرة.. وبعد أن ترجلت مع من ترجل.. دلفت إلى دهليز قصر

كبير ثم عادت تطلب إلينا أن ندخل.. فسوف يكون ذلك القصر أو على الأصح أحد غرفه مقرنا خلال إقامتنا فى المدينة.

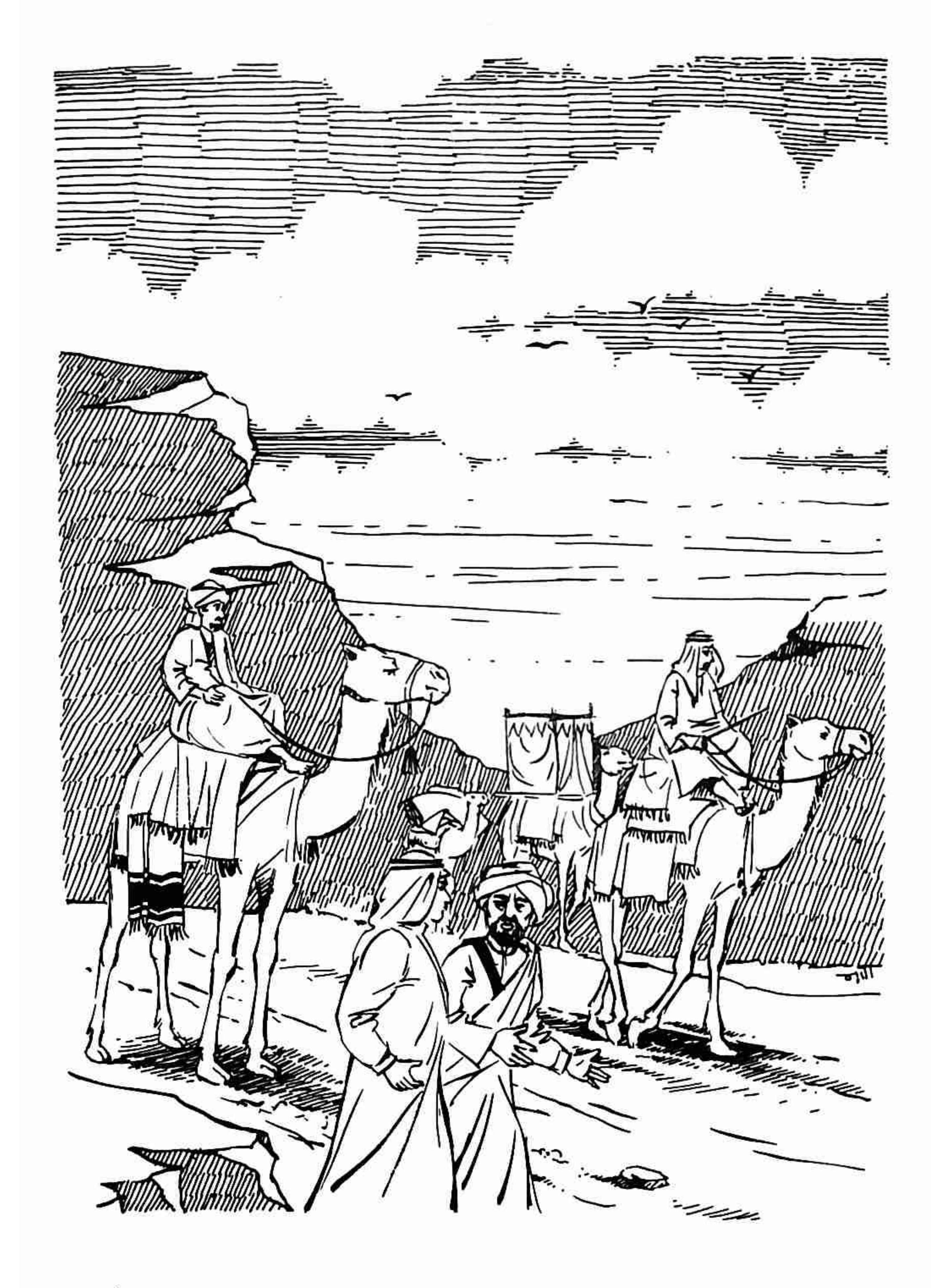
وبالأصبع التي اعتدت أن أستعملها مستفهماً عما استعصى علي.. سألت عن حقيقة الأمر فعلمت أن الخالة بتخطيطها المسبق قد زارت أحد وجهاء حيّنا ممن يملكون بعض البيوت في المدينة وطلبت إليه أن يوافق على استعمال أحدها أو جزء منه خلال إقامتنا.. باعتبار أن تلك المساكن لا تستعمل إلا في المواسم وخاصة موسم الحج.. وهي بذلك خالية تماماً أغلب شهور العام.. فوافق لمقام الخالة أسماء لديه وأعطاها تلك الرسالة لتقديمها لحارس المنزل.. متضمنة الموافقة على أن تستعمل المجلس العلوي.. المطل على بستان النخيل والساقية وبركة الماء.. وليس بخاف أن كل ماذكر سابقاً «اقصد الساقية والبركة» يعتبر اكتشافاً بالنسبة إلي.. فلم أر بركة ماء قبل ذلك اليوم.. ولم أسمع بالساقية إلا في قصة «الطاووس الذي وقف بجانب الساقية» كما في كتاب القراءة الرشيدة.. وللتاريخ فإن تلك الإقامة كانت سبباً مباشراً لولعى بالمدينة، وإصرارى على الذهاب إلى هناك مرة كل عام.. حين أصبحت أملك أمور نفسي وأصبح من حقي أن أقرر أين أذهب.. ومتى.

في آخر يوم لإقامتنا .. وبعد أن زرنا زيارة الوداع نحن وجمع كبير من الزوار الذين قرروا المغادرة عصر تلك الجمعة التى قررنا أن نغادر فيها.. وبعد أن أجهشنا جميعاً بالبكاء.. ونحن نردد كلمات الوداع.. أغمي على الخالة ـ هكذا خيل إلي ساعتئذ ـ وانهارت بكامل جسدها وملء عباءتها أمام ذلك السياج الذى يحيط بالحجرة الشريفة.. بشكل أحدث ارتجاجات في الشباك الذى يحمي القبر.. مما أحدث ضجة كبيرة تكأكأ على إثرها الناس وتجمع حرس المسجد والخالة منهارة فى مكانها ويداها مثبتتان بالسياج والناس من حولها يحاولون رفعها.. وأنا أحوقل.. وأقرأ الفاتحة عدة مرات.. سائلاً الله فى سري أن لا تقضي الخالة نحبها وهي على تلك الحال.. بعيدة عن دارها ومن بقي من أهلها على قيد الحياة.

وعندما تحركت محاولة الوقوف حمدت الله على أنه تقبل دعائي.. ووقانا عواقب مأساة كادت تحدث.. ولم أعلم أن ماحدث لم يكن سوى تمثيلية من المذكورة، قصدت بها أن تجد مبرراً لتمسحها.. بذلك السياج المحيط بالقبر الطاهر.. لم أعلم بذلك إلا بعد أيام.. ونحن على وشك الوصول إلى مكة عندما روت لى بنفسها ذلك بعد

أشـهـر وأشـهـر.. قـائـلـة: إنهـم يعرفونها هناك.. وإنها تصنع ذلـك.. كـلما زارت.. لأنهـا لا تـستطيع أن تعود إلى مكة بدون أن تضع يدها على ذلك «الشباك الأخضر».





«كما أن منظر بقية القافلة حين التقينا بها خارج مكة بعث في نفوسنا الكثير من الطمأنينة»..

(٩)

أنهت الوالدة بقرار حازم خدمات «مسفر» الذى كان ينقل الماء على كاهله فى ذينك الوعائين من الصفيح الموصول بينهما بقطعة من خشب «البامبو» متذرعة بأن مسفر شاب.. ولايستحسن دخوله بعد الآن ـ أي بعد أن ترملت ـ عليها وليس في الدار رجل.. واستعاضت عنه «بعم بشير» ذلك النوبي الشيخ، الذى كان ينقل الماء في قربة بدلاً من إنائي الصفيح.. وبذلك القرار حرمت من بعض الخدمات الإضافية التي كان يقوم بها مسفر بجانب السقي.. فقد كان يتولى حمل اللوح الخشبي إلى الفرن وبه الخبز الذى كانت تصنعه.. كما كان يتولى ذبح الديك ـ أو الدجاجة ـ لايهم .. عندما يتقرر أن الوقت قد حان لتعد لنا غذاء دسماً بهذه المناسبة أو تلك.. كما كان يتولى تنظيف البسط والأغطية في العشر الأواخر من رمضان.. كما كان يأخذ لنفسه أو لمن يعرف من المستحقين.. زكاة الفطر.. كما كان يطحن لنا الحب.. ويحمل ماثقل حمله من مكان إلى آخر فى البيت.. بل إنه كان يتولى شراء مايحتاج إليه البيت من بقال الحي وجزاره.

وقد كان لهذا القرار أثره علي فأصبحت ملزماً بأن أقوم بهذه أو تلك من المهمات التي أصبح لزاماً أن يقوم بها شخص آخر.. فالعم بشير كهل أعمش.. ليس فى ساعده عضل يقوى على حمل شيء.. وليس بحزامه سكين يذبح به دجاجة.. أو حتى نملة.. وهو ــ أي العم بشير ــ ينتمي إلى طائفة من السقاة.. كانت تجلس عصر كل يوم على مايعرف بدكة العبيد في حيّنا.. إذ كان يرتادها كل من كان رقيقاً.. فأعتق ــ طبعاً بعد أن شاخ ووهن عظمه.

وبانضمامه إلى الخدمة فى منزلنا.. أصبحت تلك الدكة ضمن دائرة فضولى وأصبح مايدور حولها.. مهماً بالنسبة إلي،فاكتشفت أن للدكة شيخاً.. وأنه هو بالتالي شيخ تلك الطائفة من السقاة.. وأن كل من يجلس عليها يمتهن السقاية.. ويتكلم لغة أفريقية لا أفهمها.. ويتذكر ماضياً لايمت إلى الحاضر.. بسبب ويمتد إلى تلك القرية.. أو هذه.. في القارة السوداء.. ويشمل سلسلة من الأسياد.. الذين اشتروه.. أو باعوه لهذا السبب أو ذاك.. ولعل بعضهم يذكر ابناً له.. أو ابنة.. بيع أو بيعت ذات يوم أو ذات ليلة.. وانقطعت أخباره أو أخبارها عنه.. كما يشمل حكايات حزينة أو باسمة عما لقيه هذا أو ذاك منهم.

كما اكتشفت أن لهذه الدكة قواعد للسلوك وقوانين للعقوبات لمن يخالف تلك القواعد.. وأغلب تلك المخالفات يتم.. حول البئر التي يسقون منها عندما يتقدم أحدهم.. على صاحبه بدون حق.. أو يتلفظ بكلمات نابية.. وكانت تتم المحاكمة دائماً بعد صلاة الظهر.. وفوق تلك الدكة،حيث يجلس شيخها ومعه بعض أهل الحل والعقد.. و يقعى المتهم على الارض.. فتتلى عليه التهمة و يتقدم الشهود.. و يطلب إليه الاعتراف.. وفى كل حالة تعرض كان المتهم يعترف بما بدر منه.. فيحكم عليه بالجلد.. فيمدد على الارض.. ليتم جلده بقطعة من الجلد كانت تمثل جزءاً من سير يربطه الشيخ على صدره.. وفي أغلب الحالات.. كان الجلد لايتعدى ثلاث ضربات هينات.. إلا أن يعفو صاحب الحق.. أو أن يلقي متطفل.. وسط تلك الحلبة حزمة خضراء.. من البرسيم.. أو الكرات.. عندها تفض الجلسة بدون تنفيذ للعقاب.. ولكن بعد أن يستشيط الشيخ غضباً على الفاعل.. الذى كان في الغالب أحد أشقياء الحي.. وأولهم.. سفيان.. أو النطفة..

ولم يتبين لي بعد سبب إلغاء العقوبة حين تلقى تلك الحزمة الخضراء ــ ولم يعرف أحد ممن سألت الحكمة في ذلك. ولعل ذلك علاقة بغصن الز يتون إياه.. الشهير في قصة الطوفان.

على تلك الدكة ــ التى أصبحت أتمسح فيها كلما وجدت وقتاً لذلك.. كانت تروي قصص «الأسياد» الذين امتلكوا هؤلاء العبيد ذات يوم ثم باعوهم أو أعتقوهم.. وعليها أيضاً كانت سمعة هذه الأسرة أو تلك تتمرغ.. وعليها أيضاً عرفت أن كثيراً من الأسياد كانوا يتسترّون على جواريهم باعتبارهم مما ملكت أيمانهم.. ولكن كثيرين منهم كانوا إذا حملت الجار ية عقدوا عقد نكاحها على أحد العبيد بالمنزل فيصبح.. المولود عبداً.. ومملوكاً للسيد بدلاً من أن يكون ابناً.. وور يثاً.. ولدى العم بشير قصص في ذلك.. وقصص.. وكان يذكر بالأسماء.. محسون.. وسعيد.. وو.. وكلهم حقيقة أبناء هذا أو ذاك.. من أغنياء الحي.. وليسوا.. عبيداً لهم.. وكانت له قصص أخرى.. عن الجنس الآخر.. في بيوت أسياده.. كلها قصص لا تسر.. وأرجو أن يكون العم بشير قد اخترعها اختراعاً وإلا فإن ثقتي في مستوى الأخلاق تلك الأيام سيكون في مستوى ثقتي في أخلاق هذه الأيام.

-الله يصيبهم .. الله يصيبهم..

قالت ذلك الخالة أسماء وهي منحنية الظهر وبيدها «مرشّ» ترش به رياحينها التي صفَّتْها في خط طويل بجانب الدكة التي كانت تنام عليها مساءً فوق سطح بيتها.. القابع في ضلع جبل أبي قبيس.. كان الوقت قبل الغروب.. وكنت في مهمة موفداً من الوالدة.. أحمل لفّة بها بعض الأقمشة.. ذات الألوان الزاهية.. التي اشترتها الوالدة.. وأرادت من الخالة أن تخيطها لها.. ملابس داخلية.. «سراويل».. بمناسبة دخول شهر شعبان الذى يسبق شهر رمضان.. الله يصيبهم.. الله يصيبهم.. هكذا رددتها.. مرة أخرى.. مما اضطرني إلى السؤال عن هؤلاء الذين تدعو عليهم.. فأجابت: البواردية..

ــ ومن هم البواردية .. أيتها الخالة..

ــ انهم الذين يقتلون الكلاب..

ــ أي كلاب.. هؤلاء.. وماشأنك أنت..؟

ــ كلاب الشارع.. يقتلونها.. بدعوى أنها مسعورة.. لقد كذبوا.. ثم أردفت.. لو أراد الله للكلاب أن تموت لما خلقها.

لقد ظلت هذه الجملة حية في نفسي أكثر من نصف قرن أتذكرها.. لسبب وبدون سبب.. وأستعملها عندما يكون الأمر متعلقاً بالكلاب أو بغير الكلاب.. وأطفىء بها غضب من يثورون على فئة من البشر.. أو وضع من الأوضاع.. مذكراً إياهم.. بأنه لو أراد الله لـ.. أن يبيدوا لما خلقهم.. وهكذا.

ويبدو أن الخالة حقيقة بعيدة النظر.. فحتى الآن لم يتمكن أحد من القضاء على الكلاب.. بالرغم من محاولات استمرت أكثر من خمسين عاماً.. مما يؤكد صدق دعواها.. لو أراد الله للكلاب.. أن تموت.. الخ.. وبالرغم من أن مجموعة من الآسيويين تأكل الكلاب.. هذه الأيام كما يتناقل الناس في مجالسهم.

ومع تفاهة القضية «أقصد قضية الكلاب طبعاً» إلا أنها شغلت ذهني لفترة طويلة.. حينما علمت بالدور الذى لعبته في التاريخ الحديث والقديم.. مما حملني على تأييد وجهة نظر الخالة أسماء.. فلو انقرضت الكلاب.. فكيف يمكن لجيلنا أن يفهم قول الله: «فمثله كمثل الكلب.. إن تحمل عليه يلهث.. وإن تتركه يلهث».. وكيف لشبابنا أن يفهموا دور الكلب في المجتمع.. وأن يفهموا تلك المقارنة الحية.. في بيت شاعرنا المشهور.. إذ لن يبقى

أمامهم سوى شطر البيت الثاني «وكالتيّس في قراع الخطوب» وبانقراض هذا الأخير «أيضاً» وأقصد التيّس.. يسقط من الأدب العربي بيت من الشعر طالما ألهب خيال القراء والمستمعين على السواء.

ولو انقرضت الكلاب من مجتمعنا.. فكيف يمكننا.. أن نعرف أن شيطاناً مر بالحي.. ألا تعوي الكلاب.. وتنهق الحمير حين ترى واحداً منهم؟!

ولو انقرضت الكلاب لفقد أدبنا الشعبي وغير الشعبي كثيراً من تعبيراته النابضة.. ولم تعد القافلة تسير والكلاب تعوي.. ولم يعد فلاناً من الناس «أشد نجاسة من ذيل الكلب».. وقضية غسل الإناء سبع مرات إحداهن بالتراب.. لن يصبح لها وجود.. كما أن قصة أحد بني إسرائيل الذي دخل الجنة.. لأنه ملأ خُفّه بالماء وسقى الكلب سوف لا تفهم.. كما ينبغي.

وباختصار فإن الخالة.. كما هي العادة كانت على حق.. وعاشت الكلاب.. ولايمكن لعاقل أن يتصور مجتمعنا.. بدونها..

واهتمام الخالة بالكلاب كما يبدو لي نابع من عاطفة إنسانية.. «أم تراها حيوانية» تجاه جميع الحيوانات بدون

استثناء.. وطبقاً لتفسيرات علماء النفس الذين لم تسمع بهم الخالة.. فلا بد أن لديها مجموعة من العقد النفسية.. مثل عقدة الاستعلاء.. وكذا الشعور بالضعة.. مما يجعلها تهتم بمخلوقات يفترض أنها.. في مستوى أقل من مستواها.. وسواء أكانت عقدتها هي عقدة استعلاء أم عقدة «أوديب» المشهورة.. فلم يظهر لي أنها تهتم بذلك بل إنها استمرت في الاهتمام بالحيوانات التي حولها.. والتي تملأ حياتها.. ولعلي أحصيت ذات يوم سبعة عشر قطاً وقطة.. كانت تسرح في دارها الصغيرة.. ولكل منهم اسم.. وتحفظ هي عن ظهر قلب قراباتهم ببعض.. فوردة.. هى ابنة «دودحي» «وهبع» ذلك الكهل الراقد أغلب اليوم.. إنما هو الجد الرابع «لتميسة».. و يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً.. وقد أكل سبعة من أحفادها خلال هذا العمر المديد.. و و.. مما لا تمل ترداده... على كل من زارها او زارته.



كـان الـيـوم الأول فـي المدرسة الفخرية الأهلية التي انـتـقـلـنـا إليها يوماً حافلاً بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.. لم يـكـن معي من المدرسة الأولى ـ سوى ثلاثة، أحمد الهبلّو ـ الـذى سـيـصـبـح دُهْلاً ـ فـي هـذا الـيـوم.. وحـسـن حمَّار.. والثالث لاأذكر اسمه الآن.. أما الباقون فقد أتوا مـن مـدارس عديدة تحضيرية، كلها على الأغلب أهلية.. وكـانـت هذه المدرسة الفخرية الأهلية في تلك الأيام أشبه بمعـهـد.. جـامـع تـنـقـسـم.. فيه الدراسة إلى ثلاثة أقسام تحضيري.. أشبه بجميع المدارس الأخرى لثلاث سنوات،ثم ابـتـدائي لثلاث أخرى،ثم عال للثلاث الأخيرة التي كان يطلق على آخر سنة فيها القُبَّة.. والمتخرج منها يشبه حامل الـدكـتـوراه هـذه الأيام، وكثير من أولئك أصبحوا مدرسين فـي الـمـدرسـة نـفسها أو في المسجد الحرام.. وتحول آخرون منهـم إلـى كـتـبـة وموظفين كبار في الدوائر الحكومية وفي المحاكم على الأخص..

ولما كانت مدرستنا السابقة تحضيرية فقط فقد التحقنا بـالـصـف الأول الابـتـدائي .. مع قرابة عشرين آخرين، نـصـفـهـم.. مـن الـمـدرسـة ذاتـهـا، والـبـاقـون مـن المدارس الأخرى.. ولئن كانت أعمار تلاميذ الصف الرابع في أي

مدرسة هذه الأيام تتراوح بين التاسعة والعاشرة فأعمار رفاقنا ذلك العام كانت تتراوح ــ ربما ــ بين الحادية عشرة والعشرين كما تتراوح مظاهرهم.. بين مظاهر ابن الحجّار.. الذى حضر أول يوم وفي يده « شوحط » ركزه خلف الباب.. وبين ابن الافندي، الذي حضر إلى المدرسة وعلى رأسه شيء ما أشبه بالطربوش التركي.. وقد كان أحمد الدُّهُل أمَّة بذاته،فلقد لبس شيئاً يشبه «العقال» ولكنه ــ حقيقة ــ حبل أسود استحسن أن يلفه على رأسه.. والبقية الباقية تعمم بعضهم.. وترك البعض الآخر رؤوسهم مكشوفة، وبالرغم من أن شيئاً مالم يلفت نظر أحدنا تلك الأيام إلا أنني أتذكر الآن ذلك الخليط المتنافر من الملابس.. والأعمار.. والسمات.. والمستوى الأسري والاجتماعي بشيء من الاستغراب.

ومع أن كلاً منا كان يقبل الآخرين على علاتهم.. إلا أن بعض المشاجرات قد نشأت منذ أول يوم بين حسن الحمَّار.. وبين ابن مترف.. عيَّر فيه الأخير الأول بأبيه.. ويبدو أن الأول كان متوقعاً لشيء من ذلك،فقد أجاب بأن الإنسان لايعيبه إلا عمل العيب.. وأن سيدنا علياً كان حمّالاً.. وأن فلاناً كان جمَّالاً.. وأن.. وأن.. مما أخزى غريمه،فسكت على مضض حتى وقت الانصراف..

حيث كمن له وتحرش به مرة أخرى.. طالباً العراك معه لتقرير أيهما الفائز في الشجار الذي بدأ ذلك الصباح؟

كانت أول مادة تدرس في ذلك اليوم «النحو».. فدخل مدرس المادة ورتب التلاميذ في صفوف على الأرض.. واضعاً كبار السن والطوال في المؤخرة والقصار.. في المقدمة.. ثم أخذ يسأل الجميع عمّا درسوه في المرحلة التحضيرية من قواعد اللغة.. وما يتذكره كل منهم.. من قواعد العام المنصرم.. وقد كانت الإجابات في الغالب سلبية.. أعني أن أحداً لم يرد على أي سؤال وجه إليه.. ويبدو أن المدرس متمرس بهذا النوع من التلاميذ،وخاصة في الأيام الأولى التي تلي إجازة الصيف الطويلة.. ولهذا انتقل من التعميم.. إلى التخصيص.. وأخذ يسأل أسئلة معينة..في الإعراب..أو أنواع الفعل.. المعتل.. وكان أول سؤال وجه إلى أحمد إذ قال له: ياأحمد أعرب «أُلهكم التكاثر».. فضحك أحمد بصوت حاد عال.. وأجاب هذه بسيطة ياأستاذ.. أُلهكم.. مبتدأ،والتكاثر خبر.. فقال له لافض فوه اجلس ياذُهل.. ومن يومها أصبح أحمد.. هو أحمد الدهل.. ومع أن أحداً من الآخرين لم يعرف كيف يمكن أن تعرب،إلا أن أحداً لم ينل أي لقب جديد في

ذلك اليوم.. وعندما تأكد مدرسنا من أن أحداً لايذكر شيئاً ألبتة من علم النحو الذي درسناه في العام الماضي.. أخذ يعيد ذلك في عجلة وبسرعة صاروخية.. مقسماً الكلمة إلى اسم وفعل وحرف.. والفعل إلى ماض ومضارع وأمر.. والاسم إلى معتل وصحيح.. والحرف.. إلى.. وإلى.. في فيض من الكلام لم يستطع أحد أن يتابعه.. حتى إذا انتهت الحصة الأولى أعلن.. «أما وقد راجعنا مقرر العام المنصرم فلسوف نبدأ في الحصة القادمة الدرس الأول من مقرر هذا العام».. ثم ترك الفصل وخرج.. ونحن في ذهول.. لم يقطعه سوى تعليق أحد الكبار ــ الذين أصبحنا نسميهم ــ العمالقة ــ إذ قال: ماله؟ يتكلم.. زي.. المكينة.. هل فهم منكم أحد شيئاً؟.

لعل من حسن حظ جيلنا ذاك، أن أغلب أنواع العلوم الحديثة كانت إماً حراماً أو بدعاً.. أو لم تعلم بوجودها المدرسة.. ولذلك لم تدرجها ضمن مقرراتها.. وبذلك أصبح علمنا كله علماً سلفياً صحيحاً.. ولايندرج تحت طائلة العلم الحرام.. ومسألة الحلال والحرام فيما يدرس وفيما يحدث كانت تبحث باستمرار خلال حصص المدرسة المختلفة.. حتى أنه عندما قدم لنا كتاب تقويم البلدان

وفي أوله خريطة للعالم العربي سأل أحمد الدهل بغرابة: ماهذا ياأستاذ أليس التصوير حراماً؟ فأفتى شيخنا الشنقيطي الذي كان يُدرِّس تلك المادة؛ بأن التصوير على نوعين: حرام ومباح وأفتى بأن رسم الخرائط.. من النوع الأخير..

كما أننا ـ استمراراً في استقصاء الحلال والحرام ـ علمنا في السنوات القادمة أن العادة السرية القبيحة التى عادة مايُبتلى بها الشباب في أول سنوات نضجهم لا تصح إلا إذا جاءت طبيعية كأن يركب أحدهم بعيراً ويحتك جسمه بشداد ذلك البعير بطريقة عفوية ينتج عنها ما ينتج عادة.. اثر ذلك النوع من الاحتكاك.



(١٢)

كانت العلاقة بين «العمالقة» وبين صغار السن والجسم.. علاقة غير متكافئة.. فكثيراً ماضُرب الأخيرون وسرقت كتبهم وأقلامهم واستهزىء بهم.. وشقت ثيابهم.. بطريقة تصبح معها غير صالحة للاستعمال إلى أن تعاد خياطتها مرة أخرى.. ولم يكن هناك نصير لهؤلاء.. سوى الدهل الذي كان كثيراً ماكانت تأخذه الحمية فينهال ضرباً وركلاً.. على الأقوياء انتصاراً للضعفاء.. وكانت جثته الهائلة وعضلاته القوية خير معين له على ذلك.

وكان مغرماً بفرك أنوف المعتدين.. حتى يخرج منه لبن أمهاتهم على حد تعبيره.. حتى المدرسين المستضعفين كان كثيراً ماينتصر لهم من أقوياء الطلبة.. وبعض المدرسين تلك الأيام لم يتجاوزوا في أعمارهم.. أعمار بعض طلبتهم.. وخاصة أستاذنا المرحوم مدرس التاريخ الذى لم يجد ما يرد به على أحد العمالقة الذى تهدده بأن يخرج له الزقاق.. لم يجد ما يقول له سوى: «إن كنت قوياً فالله أقوى منك».. وكان الزقاق الذى أشار إليه العملاق هو زقاق «أبي رغال» الذى كان بجانب المدرسة.. حيث المعارك تنشب كل يوم تقريباً بعد الانصراف من المدرسة وحيث كانت الحسابات تسوى بين

التلاميذ.. بعضهم و بعض.. ولايعرف أحد حتى أنا.. هل لأبى رغال المشهور في التاريخ علاقة بهذا الزقاق.. أم لا ؟ كما أن اسمه لم يثر شهية المحققين في معرفة تاريخه.. وقد انقرض كما انقرضت أزقة مكة كلها.. وحواريها..

ومدرسونا في تلك المدرسة لم يكونوا أكثر تآلفاً وتوافقاً فيما بينهم من الطلبة أنفسهم.. فبعضهم كان مهيب الطلعة.. يلبس جبة وعمامة.. أو جبة وعمامة وشيئاً آخر أشبه «بالشال».. يوضع فوق العمامة.. كما أن البعض الآخر كان يلبس.. ثوباً وصديرياً.. وعمامة يلفها بنفسه.. والنوع الثالث كان يعتمر طاقية.. منشاة.. مرتفعة.. وأعمارهم تتراوح بين أعمار بعض التلاميذ أنفسهم.. وبين الستين أو السبعين أحياناً.. وقد كانت لكل منهم.. شخصية واضحة.. متميزة تختلف عن شخصيات الآخرين.. كما أن لهجاتهم.. كانت متباينة وبعضهم كان يتكلم الفصحى مثل شيخنا الشنقيطي الذي كان ينغم كل جملة يقولها.. ويحرك أواخر حروفها بشكل لايدع مجالاً.. للالتباس في أنه ضليع في اللغة العربية.. وقد كان كثيراً مايقضى أغلب الدرس محاولاً

تصحيح تعبيرات الطلبة وطريقة كلامهم.. وقد كانت تدور بينه وبين الدهل مناقشات حادة.. إذ كان يصر الأخير على أن يتكلم بالطريقة التي تعجبه لا «بالنحوي» كما أراد الشيخ.. وكان كثيراً مايصيح: «ماحنا فاهمين شيء ياستاذ أتكلم.. بالعربي».. ويقصد اتكلم بالعامية.. ومهما قيل في علوم تلك الأيام وفي طريقة التدريس فإن أحداً لا ينكر أنها كانت.. تساهم جميعها.. في تقوية ذاكرة الطلبة.. إذ كان علينا أن نحفظ كثيراً من العلوم.. المنظومة شعراً.. من ألفية بن مالك في النحو. إلى الرحبية.. في علم الفرائض.. حتى الجغرافيا كان جزء منها شعراً..

افريقيا تحد من الشمال   بتونس ياعالما بالحال..

وقد كان أساتذتنا على سعة في الأفق تلك الأيام ــ لاتضحكوا ــ وأول دليل على ذلك أنهم كانوا يدرسون الفقه على عدة مذاهب وكانت كل مجموعة منا تدرس على مذهب أبيها.. ويكتب في الجدول.. «فقه حنفي» «فقه شافعي».. «فقه مالكي».. وهكذا.. وأنت تحضر ما تشاء.. كما كانت كتب تلك الأيام مليئة بالافتراضات القيمة التي تأخذ في الحسبان كل مايحدث

في مقبل الأيام.. ولقد دار نقاش طويل ذات يوم.. حول هل يمكن أكل السمك.. من النهر فيما لو جرى نهر في مكة..؟ وتعصب كل فريق لرأيه.. وقد كان أغلب المدرسين يميلون إلى تحريم أكل السمك.. بينما يرى الطلبة جميعهم أن أكل السمك من النهر الذي سيجرى في مكة حلال.. وأهل مكة كما هم أدرى بشعابها.. فإنهم أدرى بأسماكها.. وقد كان في ذلك غمز لبعض المدرسين الذين لم يكونوا أصلاً من مكة.. بل قدموا إليها من الخارج..

وقد كانت نواقض الوضوء بالذات.. محل شرح واف من أستاذنا مدرس الفقه المالكي.. الذى سألنا ذات يوم سؤالاً لم يكن يخطر ببال أحدنا ـــ مما دل على ضيق أفقنا نحن الطلبة ـــ فلقد سأل: إذا كان الخارج من السبيلين ينقض الوضوء.. فهل ينقضه أيضاً.. حمل الخارج منهما.. أي لو حمل أحدهم.. وعاءً.. من الغائط.. أو قربة مليئة بالفساء.. ما حكم ذلك.. ولقد صاح أحمد.. يومها: «بلاش قرف ياإستاذ».. فرد: لاحياء في الدين..

(١٣)

يقول الناس عادة أن هذه الحادثة أو مقابلة ذاك من الناس.. أحدثت انقلاباً في حياة فلان.. وهم يقصدون أنها غيرت حياته وربما نظرته إلى الأمور أو تفكيره كلياً.. ولو كان هناك ماهو أشد من الانقلاب فإن ذلك ماحدث بالضبط لحياتى خلال السنوات الست التي قضيتها في تلك المدرسة.. حتى تخرجت منها حاملاً أكبر شهادة يمكن أن تعطى لإنسان في طول البلاد وعرضها.. وكأي انقلاب قد يحدث فإنه يبدأ تدريجياً ثم يتطور حتى يصل الأمر إلى نقطة الغليان.. فالانفجار.. ثم الهدوء.. وهكذا الأمر فيما يخص المعتمد عليه كاتب هذه السطور المدعو «محيسن البلي».. فبعد عدة أسابيع من محاولة التأقلم في المدرسة الجديدة وفي المحيط الجديد.. بدأت الأمور تتضح في نفسي بعض الشيء، فيما يتعلق بالناس و بالأشياء أيضاً.. ففلان.. المدرس كان ثقيل الظل.. والآخر كان.. طيب القلب وإن كان على شيء يتجاوز هذه الطيبة، بحيث يدنيه من السذاجة، ولكن ذلك لايضير، ففلان من الرواة في علم الحديث كان يقال عنه ــ تحرزاً مما يروي ــ كان رضي الله عنه مغفلاً.. وهذه البقعة من الفصل الذى ندرس فيه أفضل إذا كان معلمنا هو معلم

التاريخ.. وتلك أفضل إذا كان هو معلم اللغة العربية.. لأنني كرهت الأولى لسبب لاأعرفه.. وأحببت الأخيرة لسبب لاأعرفه أيضاً.. والانصراف من المدرسة آخر النهار بصحبة الدهل أحسن من الانصراف بصحبة غيره أو منفرداً.. والقدوم إليها عن طريق شارع الحميدية أحسن من زقاق البرسيم، لأنني في الأولى ألقى فلاناً ودائماً أجيبه معبأ.. بالنبق.. وأحياناً بقرص من دقيق الدخن.. مما يستلزم مشاركته فيه من باب المجاملة.. والغداء بباب العمرة يوفر جزءاً من القرش الذي هو مصروف اليوم الكامل بما في ذلك الغداء.. وهكذا.. وهكذا.. بحيث أصبح هناك نظام كامل في ذهني لما ينبغي عمله في كل جزء من أجزاء اليوم.. وفي كل ساعة من ساعات الدرس.. بطبيعة الحال لم يتم ذلك كله إلا بالتدريج.. وعلى مدى أسابيع استغرقت الجزء الأول من العام الدراسي الأول..

في العام الثاني بدأنا ندرس كتاباً اسمه «ألفية بن مالك»!! هل يعرفه أحد منكم؟! أشك في ذلك.. وهو كتاب قيم «لاتعجبوا لذلك» إذا استطعت أن تصل إلى نهايته ــ مع فهم أغلب مافيه ــ فإنك قادر على أن تكتب أو تتحدث بدون أن تلحن لحناً لغوياً.. أي أنك

ستكون أشبه ماتكون بشيخنا الشنقيطي.. طيب الله ثراه.. ولكنك لست في حاجة إلى أن تنغم ماتقوله بالطريقة التي يفعلها هو..

ومنذ أول يوم عندما قرأنا أول شطر فيه «كلامنا لفظ مفيد كاستقم» اتضح لكل من في الفصل أن هذا الكلام المفيد «كاستقم» غير مفهوم ألبتة وأن علينا أن نستعيد شيخنا شرح كل فقرة وكلمة منه عدة مرات،حتى يفتح الله على البعض بالرد إيجابياً عندما يسأل بعد المرة الخمسين هل فهمتم؟! فإذا قال بعضنا نعم اعتبر رسالته أبلغت.. وتخطى ذلك إلى البيت الثاني من الألفية.. مشيراً إلى الذين لم يجيبوا بنعم.. على سؤال: هل فهمتم.. «وماعلي إذا لم تفهم الإبل».. أو لعله قال البقر بدل الإبل..

ولقد سقط كثير من الإبل «أقصد زملائي في الفصل» في نهاية العام.. سقطوا ليس في الامتحان فقط بل.. من المدرسة نهائياً.. وعلى رأسهم حسن الحمَّار.. الذي أعلن أن هذا الكلام لافائدة منه.. وأنه ذاهب للبحث عن صنعة.. يأكل منها عيشه.. أما أنا فقد وجدت لسبب أجهله أن حل طلاسم ألفية بن مالك.. يعتبر تحدياً عليّ الصمود له... تدريجياً.. وتدريجياً هذه

آتت أكلها في العام الثالث الذى سيسمى في مقبل أيامي بعام الجنائز «جمع جنازة»... ففي ذلك العام دخل أستاذنا ضحى ذات يوم و بدأ يقرأ:

من ذاك ذو إن صحبة أبانا والفم حيث الميم منه بانا

وسأل كالعادة هل يستطيع أحد شرح هذا البيت.. وكالعادة أيضاً رد على نفسه طبعاً لا... ثم أسرع بادئاً في الشرح.. ولكنه فوجىء... بالمتدرّج الذى هو انا يرفع إصبعه طالباً أن يشرح البيت المشار إليه.. مما أذهل معلمنا وجعله يصمت غير مصدق أن أحداً يستطيع من ذات نفسه تولي هذه العملية،وخاصة مع بيت كما ترون ليس خفيف الظل.. للنظرة الأولى.. ولدهشة الجميع فقد أفلحت في شرحه وإن كنت قد تفصدت عرقاً غزيراً بعد أن انتهيت،مما كنت قد أعددته ذهنياً لهذه المناسبة.. وقد أشاع نجاحي جواً من الحماس في طلبة الفصل،وفي نفس شيخنا الذى أعلن أن لله أسراراً حتى في النمل.. ومع أنني لم أفهم مايقصد آنذاك فقد اعتبرت الأمر مديحاً.. حتى اكتشفت بعد سنوات أنه ذم في صيغة مدح كما يقولون.. وسواء أكان ماقيل مدحاً أم ذماً.. فقد ألزمني أدبياً أن أحضر لدرس القواعد يومياً.. بحيث أصبحت ـ

تـدريجيـاً أيضاً ــ أتولى أنا شرح كل بيت للطلبة قبل أن يـشرحـه هـو.. مما سمح له بالاسترخاء في طرف الفصل وربما الإغفاء أيضاً... خلال الفترة التي كنت أتولى فيها مهـمـة الـشرح الأولـى.. أو التمـهـيد للـدرس كما أسـمي جهـودى.. الـيومية في القيام بمهمة «مساعد المدرس»... ولـقـد اكـتـشـفـت أن الألفية إياها.. كأي شيء آخر في الحيـاة يمـكن للإنسان التعود عليه، وبالتالي فهم أسلوبه.. لـدرجـة أنـنـي بـدأت أبحـث عن بعض أبياتها التي فهمت علـى أكثر مـن وجـه.. ثم أتـوجه للأستاذ طالباً شرحها.. وقـد كـان يختـار بـطـبـيـعـة الحال واحداً من الشرحين أو الـفـهـمين.. عـنـدها أبادر فأشرح البيت على النحو الآخر مـعـرضاً بجـهل الأستاذ.. الذي اضطر بعد تردد أن يطلب إلـيّ.. مـادمـت مـهـتـمـاً بعلم النحو إلى هذا الحد ــ أن أحضر درسه في المسجد الحرام عصر كل يوم قرب باب أم هانيء.. وقد فعلت.. متردداً أول الأمر لفارق السن بيني وبين طـلـبـتـه هـنـاك.. ولصعوبة متابعة حاشية الأشموني عـلـى شـرح ابـن عـقـيـل لألفية بن مالك.. ولكن غريزة البقاء.. أعني في حلقة الدرس ــ أمدتني بقوى جديدة.. تـمـكـنت بواسطتها من متابعة تلك الدروس بشكل أذهلني أنا نفسي..

ذلك العام كما قلت أصبح يسمى عام الجنائز بالنسبة إليّ.. فبعد الصلاة على «الأموات الحاضرين» يوم وفاة عمي انقطعت علاقتي بالموتى نهائياً إلى أن بدأت حضور حلقات دروس المسجد الحرام.. فلم يمر يوم منذئذ.. بدون صلاة على ميت أو ميتة.. وربما أموات.. كلهم حاضرون.. وفي مرة واحدة فقط على ميت غائب.. لاأدرى الآن من هو..؟ ولماذا غاب.. ذلك اليوم بالذات.. وقد اكتشفت أول شيء يمكن أن يكتشفه المرء.. ألا وهو الفرق بين جنازة الذكر والأنثى بواسطة ذلك القفص الموضوع على صدر الأخيرة دائماً للتمييز بينهما.. كما اكتشفت أن بعض الموتى هم من السادة.. أو العلويين بدليل أنّ وشاحاً أخضر كان يلف جنائزهم.. كما اكتشفت الفرق بين جنازة «سري» وبين جنازة «مقطوع» لايسير في وداعه سوى عدد بسيط قد يقل عن أصابع اليد الواحدة...

ومن الصلاة على الأموات إلى السير في الجنازة.. خارج باب السلام.. ثم إلى «المدعى» وأخيراً.. إلى المقابر نفسها.. هكذا تطورت العلاقة بيني وبين الأموات

حتى أصبحت أتبع كل فقيد إلى مثواه الآخر.. مؤدياً حق المسلم على المسلم «وإذا مات فاتبعه»... وبين.. الكلاب التي كانت تلك الأيام تمرح في المقابر التي لم يكن لها سور يحميها.. وبين بعض بقايا الأموات التي كانت كثيراً ماتوجد.. على أطراف القبور.. اكتشفت أن في الثرى أماكن مخصصة للوجهاء.. «شعبة النور».. وأماكن للعامة وثالثة قريبة في المدخل لاولئك الذين لايسألون عن مدفن بعينه.. وموقع مختار... وبالتجربة.. وبالتكرار الذى يعلم أشد المخلوقات بلادة أصبحت أميز جنازة.. عن أخرى.. من عدد المشيعين.. وثيابهم فأقول مسبقاً «شعبة النور» عندما أرى جنازة أتوسم في صاحبها الوجاهة أو مقابر الباب عندما أرى «نعشاً» ينوء بحمله أربعة فقط.. وبعملية.. نفسية غريبة أصبحت أتفرس في وجوه الأحياء.. بالتدريج.. محاولاً معرفة مآلهم، فأصحاب الثياب «المنشأة» كنت أسميهم أصحاب الشعبة.. متوقعاً أنهم سيدفنون عند موتهم بعد عمر طويل في ذلك المكان المعد للوجهاء أمثالهم..

وقد استغرقتني.. عملية.. الجنائز هذه كلية.. فلم يُصَلَّ على ميت إلا وتبعته، ويغفر الله لي إذ أقول إن بعض الأموات مثل الأحياء تماماً، بعضهم تستخف

ظله.. وبعضهم لا تستخف ظله.. ومهما يكن من أمر فإنني لم أترك ميتاً يموت بدون أن أحثي عليه التراب وأجلس على فتحة قبره مشاهداً تنكيسه التنكيسة الأخيرة.. ولقد حفظت بطبيعة الحال «سورة يس» بأكملها من كثرة ماسمعتها تتلى حول القبور.. «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء.. وإليه ترجعون»..

وكما تقع حوادث للأحياء.. فقد كانت تقع حوادث للأموات.. كأن يكتشف أن القبر الذى كان يفترض أن يدفن فيه.. المذكور غير صالح للدفن لسبب أو لآخر.. أو لأن الميت الذى سبقه إلى تلك الحفرة لم تبل عظامه بعد.. بشكل يمكن «القبوري» أن يجمع بقاياه في ركن من الأركان.. مما يستدعي قفل القبر ونبش قبر آخر.. فليس للميت نصيب في تلك البقعة.. «وماتدري نفس بأي أرض تموت» ومن كثرة مشاهداتي لتلك الوجوه التي انسلخت منها الحياة.. وتلك العظام والشعور والبقايا... التي كثيراً ماكنت أصطدم بها.. وتلك الروائح التي كانت تنبعث أحياناً.. من بعض القبور التي انهارت جدرانها... أصبحت علاقتي بالحياة هامشية.. إلى حد كبير.. في ذلك العام الثالث من حياتي بالمدرسة إياها.. وبانسلاخي التدريجي.. من أية علاقة.. بالحياة.. وبعد

أن أديت واجبي نحو الأموات عدة أشهر كاملة بدأت أنسلخ أيضاً من حمل الجنائز باعتبارها عملية يتم التعامل فيها.. مع كثير من الأحياء.. الذين يشاركونك.. المهمة أو الذين عليك أن تعزي بعضهم بعد الانتهاء من مراسم الدفن.. وأصبحت في حالة نفسية عامة.. يمكن أن أسميها «حالة الغثيان» المستمر.. وهذا الغثيان لم يكن غثياناً.. مجازياً فقط.. بل كان أيضاً غثياناً إمعائياً ينتابني بسبب أو بدون سبب.. مما حمل الوالدة على الشك في أنني ربما أكلت شيئاً.. أو شربت أشياء.. قد قصد بها إيذائي.. أو بمعنى آخر كانت تشك في أنني سحرت بواسطة بعض الحاسدين.. الذين ينفسون علي ما أنا فيه «تصوروا»!! ومما أكد للوالدة صحة تصورها.. تلك الأحلام الغريبة التي كانت تنتابني في تلك الفترة من حياتي والتي تدور كلها حول هذا الوحش أو ذاك يهم بافتراسي فأصرخ من منامي ثم أستيقظ مرتعداً.. أقطر عرقاً من هول ذلك الحلم.. وأغرب مافي الأمر أن الوحوش إياها كانت تبدأ أو تنتهي على شكل «خنفساء» كبيرة عظيمة الخلقة بشكل لم ير مثله في الحياة.

لقد اقتضى علاجي التردد على كثير من الصالحين وأهل الله.. كما اقتضى شرب كميات هائلة من «المحو»

بحيث أصبحت لاأشرب ماءا نقاخاً «(أي صافياً)» بل أشربه دائماً بالحبر الشيني إياه.. ولو كنت أنا محللاً نفسياً وزارني أحدهم بهذه العوارض.. وكنت على اطلاع بأصله وفصله وظروف حياته لقلت له :لقد تضافرت عليك ـ يافتى ـ عدة أمور ـ أولها أنك بلغت رشدك ذلك العام.. وجرت المياه في ساقيك كما يقول العوام مما اقتضى كثيراً من التغييرات العضوية والنفسية.. علاوة على طول القامة.. وسوء الغذاء.. مع منظر الموتى.. وبقايا الرمم.. كل ذلك أدى إلى ما أنت فيه.. وماتلك الوحوش إلا تلك الخنافس أو العقارب التي كنت تراها.. في قاع القبور.. وقد اختزنها عقلك ثم أفرزها.. ليلاً متضخمة آلاف المرات.

نعم لو كنت محللاً نفسياً وأتاني أحدهم.. لقلت له ذلك.. ولكن مشكلتي ـ أنا «محيسن البلي» ـ أنني لست محللاً نفسياً ولم يستشرني أحد.. فبقيت لا أعلم مادهاني حتى هذه الساعة.. ولقد أحسست في تلك الفترة أنني كمن أصيب بشلل نصفي ليس في الساق والذراع كما يطلق على هذا النوع من الشلل بل في الدماغ.. فأصبحت أسير في الحياة وأنا غائب حاضر.. ولكم اصطدمت في سيرى بهذا أو ذاك من الناس.. كما

اصطدمت مرات ومرات بعمدان الحرم الشريف حيث كنت أتجول في أروقته على غير هدى.

لم أنقطع بالرغم من هامشية حياتي.. عن «حاشية الأشموني».. بل لعلني انهمكت فيها أكثر من السابق.. كما لو كنت أسخر كل خلية في النصف الغير مشلول من دماغي .. في حلقة باب أم هانىء.. وكانت حصيلة ذلك كمية هائلةمن أبيات الشعر الغريب والشاذ.. حفظتها عن ظهر قلب وكانت تمثل الشواهد على رأي هذا أو ذاك من النحاة الأفاضل.. ولقد تحمست يومها للمذهب البصري.. مخالفاً للرأي الكوفي.. واكتشفت بذلك أن الإنسان يتخذ أحياناً مواقف تجاه الأماكن بالحب أو الكراهية.. حتى بدون أن يرى تلك الأماكن.. فالبصرة حتى اليوم أحب إلي من الكوفة.. مع أنني لم أر أيّاً منهما وبالرغم من أن الكوفة قد تكون أصبحت هذه الأيام مدينة جميلة تفوق البصرة مرات ومرات..

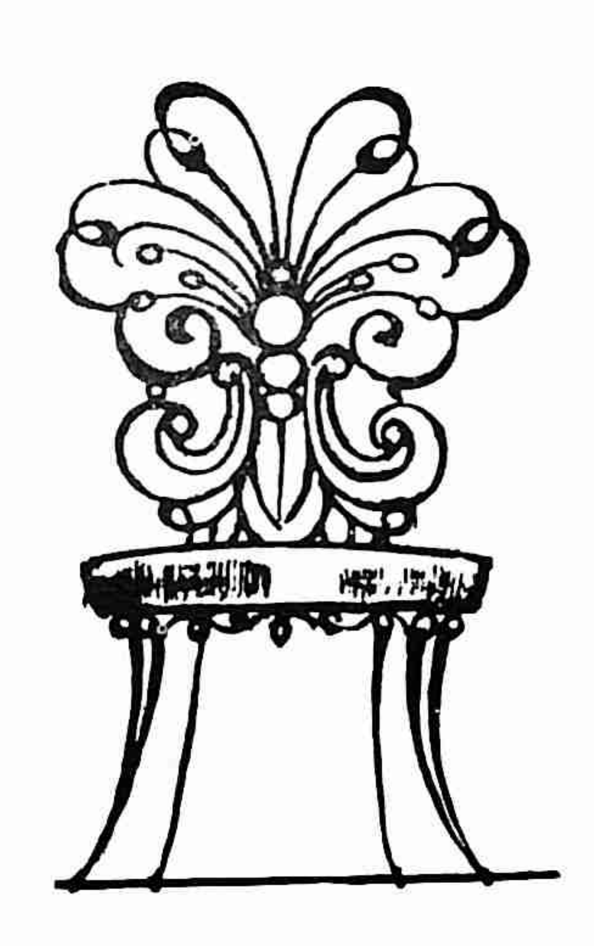
ولئن تقلص نشاطي الجنائزي مع نهاية العام.. فلقد امتد في اتجاه آخر شمل كثيراً من حلقات الدرس في المسجد الحرام.. ولعلني واحد من القلائل... الذين شهدوا تلك الحادثة المشهورة التي فسر فيها.. أحدهم «والسماء ذات الحبك» كمايلي «السماء.. هذه هي

السماء» وأشار بأصبعه: «حبك ماحبك.. شيء لانعرفه نحن ولأنتم»... الذين تناقلوا هذه الواقعة تناقلوها مبتورة، فلم يكن ذلك الفقيه جاهلاً بما نذر نفسه له، فلقد أردف بعد ذلك.. «ولكن العلماء.. يقولون في الحبك.. كذا وكذا» واستمر في فيض من العلم.. والشرح حتى فهم كل حاضر يومها ماالمقصود «بالحبك». أعجب مافي تلك الحلقات بعض دروس اللغة العربية التي كانت تدرس ببعض اللغات «الشرق آسيوية» على طريقة الأتراك الذين كانوا يدروسوننا علم النحو العربي باللغة التركية..

ولقد انتهت فترة الغثيان إياها ــ أوائل العام الذي يلي.. عام الغثيان مما اقتضى تسمية ذلك التطور النفسي ــ بالاعتدال الربيعي ــ ومما دعا الوالدة إلى الوفاء بنذرها.. فاشترت «خروفاً» وأطعمت لحمه ــ مطهواً بطبيعة الحال ــ لمجموعة من الفقراء في شكل تلك الأكلة المشهورة آنذاك، والتى يختلط فيها الأرز بالحمص في توافق عجيب.

ومع انتهاء الغثيان.. أو إبطال السحر إن كنت قد سحرت، أو تخطي سنة البلوغ الصعبة.. إن كنت أريد أن أتشبه بمدعي المعرفة هذه الأيام بانتهاء هذا أو ذاك.. أصبحت مقابر «المعلاة» خارج دائرة اهتمامي ألبته، وإن

ظلت الصلاة على هذا الميت الحاضر.. أو ذاك مستمرة.. مدة استمراري في أروقة الحرم و «خلاو يه» «جمع خلوة وليس خلية»..





«ولئن تقلص نشاطي الجنائزي مع نهاية العام فلقد امتد في اتجاه آخر شمل كثيراً من حلقات الدرس في المسجد الحرام..»

لم أعد أرى سفيان إلا «لماماً».. حينما كنا نتقابل صدفة في ذلك الشارع الضيق الذي يمتد بين «برحة السلولي» وباب أجياد.. وعندما يتقابل اثنان هناك فلا مناص من أن يرى أحدهم الآخر فيبتسم له.. ويتبادل معه كلمة أو اثنين أو يشيح بوجهه عنه محاولاً تجنبه، ولذلك فهو من الشوارع القليلة في الدنيا التي تجبرك على أن تفصح عما مافي نفسك تجاه من تلقاه.. ولم يكن بوسعي أن أشيح بوجهي عن رفيق الصبا.. بالرغم من بعض تجاربي المؤلمة معه.. ولم تكن تلك اللقاءات لتتعدى الدقائق حيث استفسر منه عما صنع.. أو يصنع.. أو يستفسر مني عن هذا أو ذاك من الأصدقاء القدامى.. ثم يسير كل منا في اتجاه.

وفي ضحى يوم جمعة.. طرق الباب علينا بدون سابق موعد.. فتذكرت يوم الجمعة السابق... والذى طرق فيه الباب منذ بضع سنوات.. واستعذت بالله من الشيطان الرجيم.. وقررت ألا أخرج معه فلست شغوفاً برؤية الرؤوس وهي تتدحرج بالرغم من قصائد الشعر الكثيرة التي تمتدح «ضرب أعناق الرجال».. الخ « ولكنه أكد لي

أن الأمر مختلف هذه المرة ولم يزد على ذلك مما أثار شيئاً من الفضول في نفسي.. فاتكلت على الله وخرجت معه.

لم يقدني سفيان في نفس الاتجاه الذى قادني فيه سابقاً،بل على العكس لقد ولج زقاقاً ضيقاً ليس بعيداً من بيتنا يسمى زقاق «الجبرت» سمي بذلك لوقوع رباط يحمل نفس الاسم.. «والجبرت جمع جبرتي.. قال الشاعر في الأغنية المشهورة

«تكروني أمه جبرتيه... الخ»

وبعد أن سرنا الجزء المنبسط من الزقاق المذكور أخذنا نصعد متجهين إلى الجبل العتيق «جبل السبع بنات» ... حتى إذا وصلنا منتصفه لاح لي اثنان من رجال الأمن واقفين أمام دار صغيرة،من تلك الدور المقعية على أكتاف هذا الجبل أو ذاك من جبال مكة.. وبحركة لاإرادية وقفت في مكاني ثم بدأت أحرك رجلي قافلاً من حيث أتيت،ولكن سفيان «ثبته الله يوم تزل الأقدام» ثبت قدمي في أماكنها بنظرة صارمة، فتوقفت عن التقهقر ثم استأنفت السير على اثره،حيث أخذ طريقا إلى يمين رجلي الأمن.. ثم سار في شبه دائرة وبحركة التفاف لم أفهم القصد منها أول الأمر حيث قادتنا مرة أخرى إلى منطقة قريبة منها،ولكن من الناحية الأخرى للمنزل..

الذي كانا يقفان أمامه، ولم يكن بإمكانهما رؤيتنا، وبدون إيضاح أو تفسير تسلق جذع شجرة شوك كانت قريبة من المنزل، ثم ولج داخلاً من خلال نافذة علوية للبيت المذكور.. ولم يكن أمامي من خيار إلا أن أفعل مثل مافعل بالرغم من أن ساقيّ بدأتا تتحركان حركات لاإرادية.. مما ينذر بسقوطي من ذلك الارتفاع الشاهق.. وذلك مالم يحدث من حسن الحظ.

لم يكن بالغرفة التي دخلناها شيء يلفت الانتباه.. فهي غرفة كسائر الغرف،بها «زرابية» شيرازية بسيطة وبعض المساند والحشايا و.. السلام.. وقد عبرها سفيان المذكور إلى غرفة أخرى على يمينها،حيث بدا لي أن شيئاً مالابد أن يكون قد حدث هناك،فكل شيء بها كان مقلوباً رأساً على عقب.. الأواني.. والكؤوس.. والحشايا..و..و.. وهذه البقع الكبيرة التي لطخت الفُرُش مما يظهر أنه كمية من الدم التي تخثرت.. بفعل العوامل الطبيعية، ولم أفهم كالعادة شيئاً.. فأخذت أسأل مستعملاً يدي كوسيلة للتعبير.. ولكن سفيان وضع سبابته على فمه ـــ أي اصمت ـــ فسكت.. ثم عاد أدراجه إلى الغرفة السابقة فالنافذة.. فشجرة الشوك.. فالجبل.. ثم عاد

بـي مـرة أخـرى إلـى أن أوصلني قر يباً من دارنا.. حيث انحلـت عقدة لسانه.. فقال: إن مارأيته من دم إنما هو دم «عـم بـختيار» قتله الليلة البارحة محمد علي الاسخربوطي بائع «السوبيا» الذي يقع حانوته قرب باب الصفا.. قتله لأنـه ضـبـطـه مـع شـقيقته ــ شقيقة الاسخربوطي ــ وقد قـتـلـهـا هـي أيـضـاً.. فـي نفس الوقت ثم ذهب إلى مخفر الـشـرطـة وسـلـم نـفـسـه وسكينه بيده.. وهذان الشرطيان يحـرسـان الـبـيـت حتى ينتهي التحقيق.. في القضية، وقد نقلت الجثتان قبل الفجر.. ثم أضاف أن محمد علي سوف يـقـتـل يوم الجـمـعـة القادم.. قصاصاً.. وذلك مالم يحدث حتـى الآن بـالـرغـم من مرور ثلاثة أرباع القرن تقريباً على هذهالنبوءة.

لـقـد أصـبـت بـشـيء من خيبة الأمل ذلك الصباح.. لمـاذا؟ ربمـا لأن الـنـفـس الأمارة.. التي هي نفسي كانت تـر يـد أن تـرى مـاهو أكثر إثارة مما رأيت.. ربما.. أو لعل رؤ يـة بـقـع مـن الـدم فـقـط.. لم تـكـن تستأهل الرحلة.. لعل.

والـشـيء المـؤكـد لي هو أن ذلك الحادث لم يترك في نـفـسـي آثاراً تذكر.. وعندما أتذكره الآن أتصور. أنه إن كـانـت لـه آثـار فـلـربما ظهرت في «عَقِبي» في الأجيال

المقبلة.. بعد مئات السنين.. فحسب ما قيل لي أن كل ماتراه.. وكل ماتسمعه ومايقع لك أو عليك يتم خزنه.. في عقلك الواعي أو غير الواعي ثم يظهر لك أو لغيرك من الخَلَف في شكل منام.. أو في شكل يقظة إذا كان تأثيره قوياً في خلاياك وحاملات الوراثة.. ولذا فإنني لا أستبعد أن إنساناً ما ــ ذكراً أو أنثى ــ سيرى ربما بعد ألف عام.. رؤياً منامية يخيل إليه فيها أنه يسبح في بحيرة من الدم.. الجاف وبجانبه يقف إنسان يشبه سفيان المذكور وقد نما على جبينه قرن.. وهو يقهقه.. قهقهة الشيطان المشهورة.. لا أستبعد أن يحدث شيء من ذلك ولسوف يحتار المحلل النفسي الذى سيزروه ذلك الحفيد أو الحفيدة، فلا يجد مايفسر به تلك الكمية من الدم، كما لم يجد كثير من محللي هذه الأيام التفسير المعقول لهذه البقع أو تلك.. التي تظهر لنا نحن أبناء هذا الجيل.

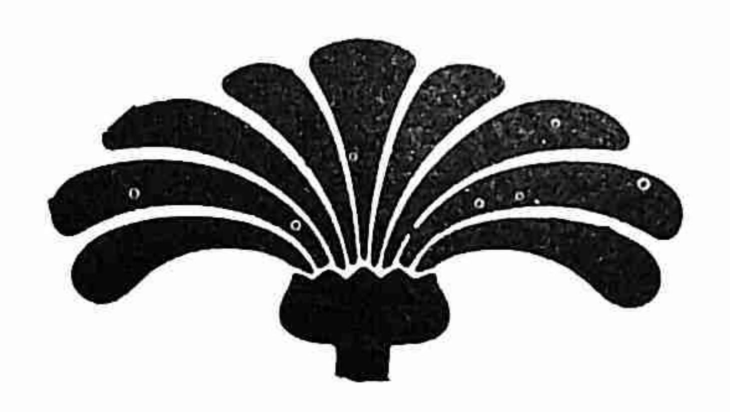
ولو لم أقرأ ــ حديثاً ــ ذلك التقرير الهام الذي كتبته منظمة الحياة الدولية.. عن جرائم القتل والانتحار وخلافه.. لما عادت بي الذاكرة إلى الوراء لأتذكر الاسخربوطي.. وآخرين.. فلقد ورد في ذلك التقرير الهام والمكون من أكثر من خمسمائة صفحة.. وبعد استعراض المجتمعات البشرية الموجودة على هذا الكوكب

من مجتمعات زراعية وأخرى صناعية.. سوداء العيون.. أو زرقاؤها.. تعيش في جو دافىء ممطر شتاء.. أو حار بارد صيفاً.. ورد بعد استعراض كل ذلك ومختلف أنواع الجرائم.. وطرق الانتحار الحديثة والجمعيات التي تقدم المشورة المجانية لمن يريد الانتحار بحيث تدله على أبسط الطرق وأكثرها فعالية.. ورد بعد كل ذلك أن أكبر نسبة للانتحار والجريمة تقع في الدول الشمالية وفي المجتمعات الصناعية.

وأنا ليس لدي أي اعتراض على التقرير القيم.. ولكنني أود أن تضاف في نهايته جملة واحدة فقط بحيث يصبح.. «المجتمعات الصناعية... وغير الصناعية» وذلك للأسباب التالية.. فبجانب حادثة الاسخربوطي المشار إليها بلغني خلال تلك الحقبة أن ابنة «الملكني» حرقت نفسها بأن صبت «قاز المسرجة» على شعرها وأشعلت في نفسها النار.. كما أن اثنين على الأقل ألقيا بنفسيهما في بئر الحمام القابع أسفل جبل خندمة.. كما انتشلت جثة ثالث من بئر أخرى لا أدري أين تقع، علاوة على أن شخصاً واحداً أعرفه مات مسموماً بعد أن شرب مادة قاتلة..

وعلى حد علمي فلم تكن عيون أي من هؤلاء زرقاً.. كما أنني لاأذكر أننا كنا نعيش في الشمال تلك الأيام.

وبهذه الإضافة البسيطة التي اقترحتها.. سيصبح التقرير إياه تقريراً دقيقاً إلى أبعد الحدود.



(١٦)

فاجأني ذات يوم أستاذنا طيب الذكر وبعد انتهاء حلقة الدرس في المسجد الحرام-فاجأني بشيء جديد لم أتوقعه،إذ أسر إلي بأنه سيعطي مجموعة صغيرة درساً خاصاً في منزله بعد صلاة العشاء،حيث سيقرأ معهم كتاباً جديداً في مادة أخرى غير النحو،ولما لمسه من تعطشي إلى المعرفة فلقد وقع اختياره علي لأكون أحد هؤلاء المصطفين ووصف لي منزله بحي «المسفلة» ورجا ألا أتأخر عن الموعد،حتى لايفوتني شيء مما سيدرس.

ولأن تختار من بين مجموعة كبيرة من الناس لتكون واحداً من قلة مختاره لعمل ما.. فإن في ذلك مايدغدغ عواطفك،ويعطيك شعوراً بالأهمية والرضا.. ولكن الوالدة رفضت الفكرة بحزم،فهي لا تشجع دخولي أي بيت سوى بيتنا وبيت الخالة أسماء،أو بيت هذا أو ذاك من الجيران القريبين من منزلنا،وفترة مابعد العشاء فترة متأخرة جداً بالنسبة لسني آنذاك،وجيلنا ممن اعتادوا على أن يكون الليل لباساً والنهار معاشاً.. ولقد مارست معها تلك الليلة التي رفضت التماسي فيها ما أصبح يسمى «بالعصيان

المدني» مارست ذلك من غير أن أسميه فرفضت العشاء الذى قدمته.. كما رفضت النوم في الموعد المحدد، وظللت يقظاً لفترة طويلة أحملق في الظلام بعد أن أطفأت «الفانوس» الصغير الذى كان يضيء الدار.. حتى إذا تقدم الليل.. سعت إلي محاولة إقناعي بوجهة نظرها ولكنني رفضت.. ولم تكن الرغبة في العلم. حقيقة — هي التي دفعتني للإصرار، فكيف للمرء أن يحرص على تعلم علم لم يعرف بعد ماهو — ولكن خجلي من نفسي ومن أن أقف أمام أستاذنا معتذراً بأن الوالدة قد رفضت حضورى إلى منزله مع تلك الصفوة.. من طلبة العلم.. هما سبب إصرارى على المشاركة في تلك الندوة.. ولم يطل تمنعها فلقد استسلمت قبل منتصف تلك الليلة.. مفوضة أمرها إلى الله — كما ذكرت لي — باكية مولولة.. داعية ألا يكون في ما سأقدم عليه أي خطر علي.. موصية إياي بأن أسير في وسط الشارع — لاعلى جوانبه — كما نفعل هذه الأيام.. مستعملاً الطرق الرئيسية متجنباً الأزقة المعتمة.. مفتحاً عيني قدر الإمكان.. مما استوعبته جملة وتفصيلاً.. ونفذته بحذافيره — مع أنني لم أعرف يومها ماهي الحذافير — وهل هي جمع حذفور أو حذفورة.

وفي أول ليلة وزع علينا ـ طيب الذكر حياً وميتاً ـ نسخاً من كتاب اسمه «الملل والنحل» لمؤلف لم أتعرف على اسمه بسهولة.. ونظراً لأني لم أعرف معنى لكلمتي الملل والنحل.. وخصوصاً الأخيرة منهما، فقد أخذت أحملق في الكتاب بتركيز شديد.. لعل وعسى.. أي لعل في الحملقة مايساعد على فك تلك الألغاز.. وعسى أن يكون في التركيز الذهني الشديد مايسعفني بتفسير لما أنا مقدم عليه.. ولما تعذر على ذلك لجأت إلى الصمت ـ تلك الفضيلة الكبرى التي طالما أسعفت البشر ـ كل البشر ـ حين يعجزون عن فك هذا اللغز أو ذاك..

كنا بضعة نفر ـ سبعة على وجه التحديد ـ لم أعرف أحداً منهم قبل تلك الليلة ولم أسأل.. فما كان الناس يومها يسألون، كما أنهم لم يكونوا يقدمون أنفسهم بنفس الطريقة التي نقدم بها أنفسنا اليوم حين نلقى من لانعرف ـ ولم نكتشف يومها بطاقات التعريف والزيارة ـ كما لم يتطوع أستاذنا بتعريفنا على بعض، فلزم كل مكانه في الحلقة الصغيرة التي كوناها استعداداً للدرس.. وللحلقة سر لم يكتشف بعد.. فجلوسنا حول مائدة الطعام كان على شكل حلقة، ودروسنا في المسجد حلقة، وطوافنا أيضاً كان تحلقاً حول الكعبة.. والباعة..

والشراءون كانوا يتحلقون في «الحلقة» وهي سوق الخضار آنذاك.. والشعراء على أيامنا كانوا يحلقون في سماء الشعر أي يدورون في حلقة، مفرغة أو غير مفرغة لايهم وعلى نسائنا يومها ـ كانت «حلقاً»... وعلى أيامنا كان الحلق هو الوسيلة الفعالة للتخلص من القمل.. الخ..

ولم يطل انتظارنا فبدأ الشيخ يعرفنا بالمؤلف.. مولده.. ونشأته.. وممّ اشتق اسمه.. وأين تقع القرية التي نسب إليها.. و.. و.. مما جعلنا نأنس إلى عشرته ـ عشرة المؤلف ـ وكأن بيننا وبينه وشائج قديمة.. أو علاقة وطيدة.

كما أن عنوان الكتاب ـ والكتاب يقرأ من عنوانه ـ أصبح مفهوماً لدينا مع نهاية الدرس الأول.. وأصبح من الجلي لدي أن النحل بفتح الحاء شيء آخر غير النحل بسكونها... مما أشاع في النفس شيئاً من الرضا ولقد استغرق ذلك الدرس بأكمله.. ثم جمعت الكتب.. ووضعت أكداساً.. وإن شئت ـ كدساً واحداً ـ في طرف الغرفة.

إلى هنا ـ وكل شيء كان يسير على مايرام.. إلى أن قدم إلينا فتى صغير السن.. هزيل الجسم.. لعله

خادم.. كؤوساً صغيرة بها سائل أحمر،لم يسبق لي التعرف عليه.. ففتحت عيني بتشديد التاء طبقاً لوصية الوالدة محاولاً معرفة ما في تلك الكؤوس الصغيرة.. فهي ليست «شاياً» ذلك المشروب الذى تعودنا عليه،لأن مابها يختلف لونه عن لون الشاي.. كما أن ملمس الكأس كان بارداً بعض الشيء والشاي يقدم حاراً.. ولذا فقد ترددت في احتسائه منتظراً.. مترقباً حيث بدأ الآخرون.. ولما لم يبد على وجوههم مايدل على رفضهم لما طعموا.. بدأت أنا.. ولكن مااحتسيت لم يرقني فتوقفت متردداً.. محملقاً.. في سقف البيت محاولاً أن لا تلتقي عيناي بعيني أستاذنا ومضيفنا.. وقد لاحظ هو ذلك فقال: اشرب يامحيسن.. هذا «عرقسوس» طيب للدم.. وللأعصاب.. ولم يزد لي على ذلك إيضاحاً فالاسم غريب علي،علاوة على أنه غير محبب على السمع.. ومع هذا فقد حاولت مرة واثنتين متظاهراً بأنني متحمس لما أفعل،ولكن بدون جدوى.. وانحصر جهدي بعد ذلك في محاولة إيجاد بقعة في الغرفة يمكنني أن أقذف فيها ما بداخل الكأس،مظهراً أن ماحدث كان صدفة،ولكن في الوقت ذاته بدون أن أفسد شيئاً من أثاث المنزل.. ولم يطل ترددي.. فقد كنت محل مراقبة على مايبدو،إذ قرر شيخنا أن ينقذني مما أنا فيه فتقدم وحمل الكأس بيده وأعطاه للخادم قائلاً: إن محيسن

لايروق له طعم الشراب.. فتنفست تنفساً عميقاً.. لأن تنفس الصعداء لم يكن معروفاً لدي آنذاك.

ويبدو لي أن العلة لم تكن تكمن في طعم ذلك «العرقسوس» بل في الشك الذى نشأت عليه في كل ماهو جديد وغريب.. نتيجة لذلك «الموال» اليومي الذي كنت أسمعه من الوالدة: انتبه لاتشرب شيئاً من يد غريب.. لاتأكل في بيوت الناس.. لاتدخل.. لاتخرج.. لا.. لا..

وحالي.. مع العرقسوس لايختلف عن حال ذلك الصحفي الذى سافر إلى مصر.. بعد حادثتي.. طبعاً.. ورفض أن يشرب ماقدم إليه قائلاً:إنه لايشرب الخمر.. فلما شرح له أن ذلك ليس خمراً وإنما هو شراب بريء حديث عهد بالشرق اسمه «الكوكاكولا».. فلم يزد على أن قال:ان تغيير الاسم لايغير المسمى... وإن الاسم في حد ذاته لا يبعث على الارتياح.. مما أحرج مضيفه المصري.. فأمر له بفنجان من القهوة.. في محاولة لإعادة الهدوء إلى نفس «شيخ العرب».. القادم من الصحراء.

سارت الدروس على مايرام إن كان مايرام يعني تتابعها في الوقت المحدد بدون انقطاع.. أما إن كان يعني

التحمس لها أو سرعة هضم مايدور فيها.. فإن الامر لم يكن على مايرام.. بالنسبة إلي.. ولبعض من حضر ذلك المجلس.. مما استدعى السير ببطء شديد. والانتقال من صفحة إلى أخرى كان أصعب من الانتقال من أحد شاطئي الأطلنطي إلى الشاطىء الآخر هذه الأيام..

وبعد بضع ليالي قررت أن الامر يحتاج إلى معالجة على نحو مختلف فتلكأت في الانصراف.. حتى إذا خلوت بشيخنا سألته على استحياء إن كان بوسعي أن أستعير تلك الملل والنحل ــ أعني الكتاب ــ حتى يمكنني أن أُحضِّر الدرس قبل موعده.. فوافق شريطة أن أحافظ عليه وأن لاأسمح له بأن يتلوث أو أن يتمزق غلافه، أو أي من صفحاته.. وقد كان لذلك ــ أثر في تحسن الموقف فأصبح من اليسير علي متابعة مايدور في الحلقة إياها، بل إنني بدأت أطرح بعض الأسئلة وأناقش هذا أو ذاك من الأدلة التي ترد على لسان هذه الجماعة أو تلك.. وبالرغم من كل ذلك فلم أكمل الرحلة إلى آخر نحلة.. ولاأدري أي قشة ــ أقصد أي ملة ــ قصمت ظهر البعير ــ ظهري؟! لعلها كانت الرافضة.. أو الجهمية.. أو كلاهما المهم أنني بدأت التقاعس.. كما يحدث في نوع من الإضرابات الحديثة حيث يتباطأ العمال في الدخول

إلى مصانعهم.. ثم يستمر ذلك التباطؤ طيلة اليوم فينخفض إنتاجهم بشكل يؤثر على اقتصاديات المشروع مما يلفت الأنظار إلى مطالبهم.. وهم بذلك لايعلنون العصيان فيقعون تحت طائلة القانون ولايرضون بما قسم لهم فتفوت عليهم فرصة تحسين أوضاعهم، ولقد تأخرت أول يوم.. دقائق معدودة، فانتظرني القوم.. ثم تأخرت ثاني يوم فكرروا صنيعهم،ولكن أستاذنا تنحنح بصوت عال عندما سمعني أعبر الممر الموصل بين الباب الخارجي.. وبين باب الغرفة،مما ينذر بأن للصبر حدوداً.. وفي المرة الثالثة تأخرت.. حتى انتهى الدرس.. ثم عدت إلى البيت بعد أن تسكعت في الأزقة بدون هدف.. ويومها أحسست لأول مرة بذلك الشعور الغريب الذى ينتابك حينما تكون فى مكان ما.. بينما يظن الآخرون أنك فى مكان آخر.. فتبتسم لنفسك صنيع من يخبيء أعظم أسرار العصر.. ثم أعدت الكتاب إلى أستاذنا قائلاً: إنني لظروف خاصة لاأستطيع الاستمرار في الدرس.. ولم يسألني هو عن تلك الأسباب، كما أنني لم أعرف ماهي حتى أشرحها له..وكل ما أعرفه أن ذلك الطوفان من البلبلة الفكرية التي تحتويها دفتا ذلك الكتاب.. لم ترقني.. أعني لم ترقني لدرجة تجعلني أستمر معها حتى النهاية.. فقد كانت كل حجة تقال لتأييد مذهب أو نحلة

تبـدو لي منطقية حتى يبدأ شيخنا في تفنيدها واحدة بعد أخرى.. بادئاً كالعادة.. «والرد على ذلك إن قيل لك فهو».. ثم يستطرد حتى يقضي عليها نهائياً ثم ينتقل إلى حجة أخرى وهكذا دواليك.. أو دوالي أنا.. حتى أنني لم أعرف.. في النهاية.. مافائدة هذه الحجج كلها إن كان بإمكانه أن يدحضها كلها.. وبهذه البساطة ؟

وإن كنت قد استفدت شيئاً من تلك الساعات التي قضيتها بين تلك الصفحات،فهي بذر بذور القدرة على الدخول في جدل حول أي موضوع أتحمس له.. ومن ثم إقناع الطرف الآخر بوجهة نظري،لدرجة أنني فكرت ذات يوم وبطبيعة الحال بعد سنوات.. عديدة.. من احتراف مهنة «الدعوجية».. أي أن أكون «أبوكاتو» كما يسمي ذلك الجيل الحديث، فقد كنت أحس أنني قادر على الدفاع عن أية قضية أقتنع بالدفاع عنها،ولكنني لما كنت أعلم أن الناس إنما يكبهم على وجوههم حصائد ألسنتهم فقد آثرت العافية حتى لاأكون في عداد أولئك الذين يكبون على وجوههم من المحامين وأمثالهم..

(١٧)

عـنـدما أصبحنا في القسم العالي تناقص عددنا بشكل كـبير فلـم يـبق سوى بضعة نفر كنت أحدهم.. ولم آس عـلـى فـقـد أحد كما آسيت على فقدان الدّهل الذى كان ظلـه كـافـيـاً لـردع المعتدين على صغار الأجسام وضعاف البـنـيـة. كان معنا يومها فتى يدعى «حسام العسكر» ومع أنـه لم يـسـتـخف ظلي من البداية، كما لم أستخف أنا ظله مـنـذ الـبـدايـة أيـضـاً إلا أن كلاً منّا كان مشغولاً بخاصة نـفـسـه فـلـم نتشاجر قط وإن كنا لانتبادل حتى التحية.. لعلـه يشبه عدواً لأحد أسلافي فانتقلت صورة ذلك العدو إلـى نـفـسـي فكرهت عشرته منذ البداية.. أو لعلي كنت شبيهـاً لـقـريب يكرهه فتنافرنا بدون أن يسيء أحدنا إلى الآخـر.. المهم أنه بدأ بعد أن خلا له الجو بالتحرش بي.. ولـما كـنت أصغر طالب جسمانياً فمن المؤكد أن أهزم أمام أي مـقـاتل يدعوني للمبارزة.. وقد هزمت بالفعل مما أغراه أكثر فـأكثر، فـبـدأت اسـتراتيجية «تحييد العسكر».. وليس تحيده هنا جعله على الحياد، وإنما إيقافه عند حد.. وكانت أول خـطـوة فـي تـلـك الاستراتيجية هي الفرار بمجرد انتهاء آخـر درس، وذلـك بحـمـل نـعالي تحت ابطي وتشمير طرف ثوبي حتى لاأعثر فيه ومن ثم الركض بأقصى سرعة ممكنة

حتى أدخل حدود حينا وأصبح في مواجهة الباعة الذين كانوا يعمرون تلك المنطقة، وقد نجحت في ذلك إلى أبعد الحدود؛ ولكن العسكر بعد عدة أيام فطن إلى ماكنت أصنع، فجعل يسبقني إلى الخروج و بالتالي يبدأ التحرش بي، ومن ثم الاشتباك معي، حتى أصبح ذلك جزءاً من البرنامج اليومي لحياتي، وكنت بطبيعة الحال أهزم في كل مرة بالرغم من أنني طورت وسائل دفاعي، فأدخلت «العض» ومحاولة إمساكه من بعض المناطق الحساسة.. وكلا هاتين الوسيلتين كانتا من الوسائل غير «الرجولية» في اصطلاح المتعاركين في تلك الأيام.. وكان عقلي لايكف عن التفكير في الطريقة التي يمكنني أن أتخلص بها من شروره.. ولكن بدون الوصول إلى نتيجة، حتى كان مساء.

كنت عائداً من الحرم بعد صلاة العشاء بقليل.. وعندما وصلت إلى مدخل بيتنا أحسست أن إنساناً أو شبحاً كان يقف هناك، وعلى ظهره مابدا أنه كيس أو «شوال» كبير.. كبير ربما بدرجة تفوق جسم حامله فأسرعت في فتح الباب والولوج بدون أن أترك فرصة لذلك المتربص بحمله للحديث معي، ولكن ما أن دخلت حتى بدأ الطرق وأخذ ينادي في همس: محيسن..

محيسن.. لقد كان ذلك الطارق «سفيان» وما أن تبينت ذلك حتى وقف شعر رأسي من شدة الخوف فلقد ظننت أنه يحمل جثة.. أو قتيلاً على ظهره.. ولكنه أصر على الطرق والهمس.. فلم أجد بداً من فتح الباب فتحة صغيرة،فإذا بي أسمعه يقول دعني أترك هذا الكيس في دهليز بيتكم لبضعة أيام..

في تلك اللحظة جاءني مايشبه الإلهام فقلت بدون تردد: بشرط أن نقاتل العسكر، لم أفكر في الذى بداخل الكيس ولافي نتائج إخفائه ببيتنا،وإنما كنت أفكر فقط في هزيمة العسكر،وبدون تردد أجاب سفيان:موافق.. ولكن من هو هذا العسكر الذى تودنى أن أقاتله،قلت:هو حسام.. قال:ومن حسام؟ قلت زميل لي.. قال: «بسيطة» ففتحت له الباب فسار بحمله حتى نهاية الدهليز، إلى تلك المنطقة التي عليك أن تنحني عندها إن كنت تريد أن تصل إلى «حنية» الفحم أي المكان الذى يخزن فيه الفحم عادة في بيوتنا،وهناك ألقى بحمله أرضاً ثم سحبه حتى ركنه في الزاوية الجنوبية.. فأصبح بذلك في منأى عن عيون الداخلين والخارجين ثم تحرك في اتجاه الباب،فأوقفته بحركة من يدي ثم قلت: والعسكر؟!..قال: غداً سأنتظرك قبيل العصر وقت خروجكم من المدرسة

وماعليك حين تراني إلا أن تشير إليه وسترى.. ولقد رأيت بالفعل مايقال عنه أنه يثلج الصدر،بالرغم من أنه لم يثلج لي صدراً،بل جعله يعلو ويهبط بشكل فجائي من هول مارأيت.. فمجرد أن أشرت إلى المأسوف عليه إشارة خفيفة حين خروجي من باب المدرسة.. تقدم إليه سفيان فصفعه بدون أن يكلمه صفعة،عرفت معها معنى أن يزلزل حدث إنساناً ما،فلقد زلزلته زلزلة لعله لم ير مثلها في حياته،وقبل أن يفقد توازنه نهائياً كان سفيان قد حمله فوق رأسه ثم ألقى به على الأرض،ومن ثم برك على صدره وأخذ يذيقه طعم اللكم والركل،ثم لوى عنقه وجعل يفرك جبهته في التراب.. ثم أمسك بكلتا يديه عنق ثوبه وشقه حتى أسفله مما حوله إلى مايشبه «الجبة» التي كان يلبسها أهل ذلك الزمان.. ثم التفت إليّ قائلا: كفاية؟! فأومأت برأسي،فتركه في مكانه وشدني من يدي ثم انطلق.

غاب حسام بعد تلك الواقعة عدة أيام.. وعندما عاد عاد بثوب جديد.. ورأس محلوقة حلقاً ناعماً.. وبروح استسلامية وادعة.. استمرت حتى انتهت سنوات الدراسة وابتعد كل منا عن صاحبه.. لقد تعلمت يومها كيف يمكن للكيانات الضعيفة أن تستغل الكيانات العظمى

لصالحها إذا أحسنت استخدام مالديها من إمكانيات.. أو دهاليز مظلمة..

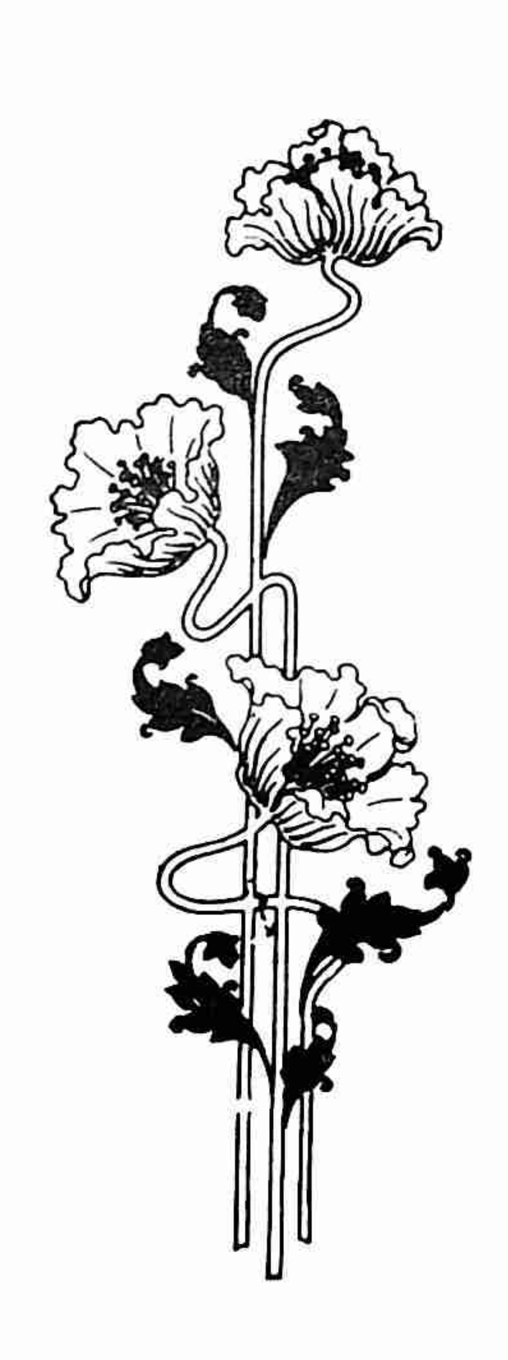
كان علي تلك الليلة أن أعرف مابداخل ذلك الكيس الذى أودعه سفيان.. (حنية الفحم) ببيتنا ففتحته على خوف.. فلم أجد به سوى مجموعة من النعال القديمة.. أو البالية مما زاد حيرتي في الأمر.. وبعد أيام عرفت ماحدث.

لقد كان يوجد بجوار ميضأة باب أجياد «إسكافي» أي خراز يخرز النعال القديمة، ولقد سولت لسفيان نفسه بسرقتها فسحب الكيس الذى كان يجلس عليه المذكور ــ بعد أن ذهب «الإسكافي» إلى صلاة العشاء ومن ثم حشاه بكل تلك النعال التي كانت تكون كومة كبيرة ثم حمله على ظهره وانطلق.

أحسست تلك الليلة أن سفيان سينتهي تلك النهاية الفاجعة التي تنبأ له بها شيخنا إسحق، وأنه سيصلب ذات يوم و يأكل الطير من رأسه.

أما مافعله بتلك النعال القديمة فقد أخذ يبيعها بالتدريج فكان يأخذ اثنين أو ثلاثة ثم ينطلق إلى هذا أو

ذاك من الخرازين فيقبض ثمنها.. هللات قليلة أو قروش على أحسن الأحوال.. حتى انتهى منها كلية.. وكان أفضل زبائنه كما أخبرنى خراز بزقاق الراقوبة بالمدعى.



(١٨)

أصبح من حقنا ونحن في القسم العالي أن نأخذ كتاباً أو أكثر من مكتبة المدرسة عن طريق الاستعارة، ذلك الحق الذى لم يمارسه أحد من تلقاء نفسه، إلى أن حثنا عليه أكثر من مدرس كتقليد متبع من تقاليد المدرسة.. دخلت يومها غرفة المدير وكان متكئاً على مسند وأمامه فنجان من الشاي ومَذِبَّة.. مصنوعة من القش كان يدافع بها الذباب الذي ما إن يتفرق شمله حتى يعود فيجتمع قريباً من فنجان الشاي، فيعاود المدير ذبه.. مرتشفاً رشفة من الشاي بين كل ذبة وأخرى.. وما إن رآني حتى أشار بيده أن اخرج بدون أن يعرف سبب قدومي، أو أن يعرف من أنا. ولكنني لم أفعل بل تقدمت في اتجاهه حتى صرت على مقربة منه، ثم قلت: أنا محيسن فجعل يلتفت يميناً وشمالاً، كمن يريد أن يشهد الناس على صنيع غير مألوف.. ثم قال: محيسن؟ ومن محيسن هذا؟ ـ قلت: محيسن البلي طالب في القسم العالي، قال آه!! تريد أن تستعير كتاباً، قلت. نعم، فمد يده إلى مجموعة من الكتب كانت مكومة على مخدة بالية وأخرج من بينها واحداً ثم دفعه إلي وقال: انتبه.. لا تمزق أوراقه ولا تضع الطعام فوقه فيتسخ.. وعاد إلى ذبابه وفنجانه وعدت إلى

غرفتي ــ غرفة الفصل ــ ذلك المدير ــ كما علمت ــ معين من قبل هيئة آسيوية كانت تنفق على المدرسة وقد أرسل من هناك لهذه المهمة... فكان يتولاها و يتولى شؤون المدرسة ــ على مايبدو ــ بالطريقة التي تولى بها أمري.. ذلك الصباح. ماعلينا!!

كان ذلك الكتاب كتاب شعر صغير قليل الصفحات بل كان في الحقيقة قصيدة واحدة فقط كان اسمها «قصيدة في هجاء الزمان» لأبي «فلان» الأندلسي.. وأنا حديث عهد بالشعر لاأعرف منه شيئاً سوى ماحفظنا في دروس المحفوظات،وأهمه قصيدة السموأل التي كنا نسميها قصيدة «لنا جبل» لأنه يقول فيها «لنا جبل يحتله من نجيره» ولقد وجدت صعوبة بالغة في فهم أبياتها ومراميها ــ أعني قصيدة هجاء الزمان ــ وعندما انتهيت منها بعد استشارة العديد من المدرسين في معنى هذه الكلمة أو تفسير تلك الجملة أحسست بالرثاء لذلك الزمان الذى هجي كأقبح مايكون الهجاء. ولقد ظللت أحفظ عدداً من أبياتها لمدة طويلة حتى بعد أن أخذت كتاباً ثانياً وثالثاً كلها «أهاجي» علمت فيما بعد كان يصر ذلك المدير على إعطائها بنفس التسلسل إلى كل مستعير لكتب المدرسة. لعله صاحب «نزعة سادية» أو لعله إنسان واقعي

يريد من رجال المستقبل أن يروا الوجه المظلم من الحياة حتى إذا أشرق الوجه الآخر.. كان سرورهم بذلك الإشراق مضاعفاً.

وكل من قرءوا مثلي تلك الكتيبات الثلاثة لابد أنهم قرؤا قصيدة هجاء «ابن الطرطبة» والتي دفع المتنبي حياته ثمناً لها بعد أن كمن له «ضبة» ذلك المسمى ابن الطرطبة مع عدد من الشطار في الطريق إلى خراسان على ماأظن ـــ فجندلوه بسيوفهم ـــ وبالرغم مما حدث له فلا أظن أن شيئاً يمكن أن يمحو الأثر الذى تتركه تلك الرائعة في نفوس البشر، بعد أن يبدءوا قراءتها وخاصة ذلك الجزء الذى يتحدث عن عجانها «عجان الطرطبة» ماأنصف القوم ضبَّة وأمه الطُّرْطُبَّة.

وأحمد الله أن لم يكن في المدرسة سوى تلك الكتب في الهجاء، وإلا لقضيت ما تبقى لي من سنوات في قراءة شتم أعراض الناس والتشهير بهم مما يقع تحت طائلة القانون. خلال العامين النهائيين في المدرسة قرأت مجموعة من الكتب التي لايجمعها موضوع واحد ـــ منها روايات وقصص مترجمة ودواوين شعر وكتب متنوعة أخرى أحدهما كان عن شخص اسمه أرسطو طاليس، لم أفهم فيه شيئاً، وثان في الفلك، وثالث في كيمياء المعادن!!

كانت كتباً لا ترابط بينها، ولم أختر أحدها أبداً فقد كان الشيخ المدير هو الذي يختار الكتب للقراءة وقد كان هؤلاء القراء ثلاثة نفر لاغير ــ كنت أحدهم.

كانت عملية القراءة تتم في الغالب إما في الحرم لوفرة الضوء فيه، وإما على ناصية زقاق قريب منا كان يضيئه مصباح للبلدية، وكانت القراءة تحت المصباح المشار إليه تتم وقوفاً مع المشي والتحرك جيئة وذهاباً، حين تبدأ عضلات الساق في التصلب. ولاشك أن منظري كان ملفتاً للنظر فلكم وقف العابرون للتفرج على هذا المعتوه الذى يظل مسمراً على ناصية الشارع كل ليلة، يقرأ ويقرأ.. والعقلاء في بيوتهم.. ولكن ما العمل «وفانوس» البيت كان لايسخُّ من الضوء مايكفي للقراءة المستمرة. ومن الذين لفتُّ انتباههم «العم عمر» الساكن في نهاية الزقاق المشار إليه. فوقف عدة مرات سألنى في أولاها عما إذا كنت ابناً للسيدة «فلانة» فلما أجبت بنعم سألني ماذا اقرأ، فلما أجبته هز رأسه، ومضى.. وكان يعاود السؤال كلما لاحظ أن الكتاب قد تغير، وفي كل مرة كان يهز رأسه ويمضي. والعم عمر شخصية غريبة وفريدة فلعله كان الوحيد في الحي كله الذى قرأ كتاباً غير كتب الكتاتيب والمدرسة الأهلية.. ولعله الوحيد الذى كان

يشغل وظيفة في جهاز حكومي.. ولعله الوحيد الذى كان يلبس جبة،ثم صار يلبس مشلحاً حين استمر موظفاً في العهد السعودي.. ولعله أيضاً الوحيد الذى كانت له أوليات معروفة في الحي كله.. فهو أول من اقتنى جهاز راديو ــ حين اخترع الراديو ــ وهو أول من لبس نظارة طبية،وأول من اشترى سيارة في مقبل الأيام حين وجدت السيارات،وأول من استخدم خادماً من غير خدم الحجاز وأول من، وأول من.. الخ. إلى ما لا يحصى من الأوليات التي كنت أكتشفها تباعاً الواحدة بعد الأخرى بمرور الزمن و بتعمق العلاقة فيما بيننا.

في واحدة من وقفاته و بعد مرور عدة أشهر على استعمالي لركن الشارع كمكان للقراءة ــ قال لي الشيخ عمر إن لديه مجموعة من الكتب التي يسره أن يعيرني ما أشاء ــ وماعلي إلا أن آتي إلى بيته عصر أحد الأيام لأطلع عليها ولأختار منها ماأريد .. شكرت له صنيعه فى أدب فمضى إلى منزله.

في اليوم الثاني مر كالعادة وحيا من بعيد بدون أن يعلق على حديث الأمس،وهكذا فعل لعدة أيام ثم توقف ذات ليلة وقال لي هل نسيت العرض الذى قدمته لك..

إنه لازال قائماً،وإن كنت تفضل أن أحضر بعض الكتب هنا في الشارع فعلت.

خجلت من نفسى آنذاك ثم قلت له:لا.. لاداعي لذلك.. إن السبب في عدم حضوري هو أن لدي كتاباً أقرؤه الآن،فإذا ما انتهيت منه وأعدته إلى المدرسة جئت إليك.

أبلغت الوالدة ذلك المساء بعرضه مستنصحاً فسكتت لحظات. لعلها فكرت في ماحدث ليلة رفضت ذهابي إلى الدرس الخاص،ولهذا لم ترد وطال صمتها فلما استفسرت مرة أخرى قالت: لاأريد أن أمنعك من ذلك ولكنني لاأستطيع أن أوافق بدون التفكير في عواقب الأمر.. إن الشيخ عمر ــ هكذا قالت ــ «فرمسوني».. يعرف ذلك عنه كل أهل الحي.. وهو يسافر إلى بلدان النصارى ويستطيع أن يتكلم بلغة غير المسلمين،ويقرأ كتباً «كباراً» لايعرف أحد ما هي.. ثم أضافت: إذا كنت تصر على الذهاب إليه فسأذهب معك أول مرة.. إنني أعرف والدته وهي سيدة طيبة وإن كانت قد طعنت في السن لدرجة ربما لم تعد تعرف الناس معها ومع ذلك فسأذهب معك لزيارتها،وخلال ذلك تأخذ أنت الكتب ونعود معاً..

لعل الشيخ عمر آنذاك كان «فرمسونياً» بل لعله كان أسوأ من ذلك.. لقد كان أول مارأيت في الغرفة التي دخلتها في بيته صورة كبيرة لشيخ ملتحٍ ربما كان والده أو جده!! لقد كان التصوير أشبه شيء بالكبائر تلك الأيام، لم يكن في حيّنا بل في مكة كلها مكان للتصوير وطبع الصور أو تكبيرها،ولم يكن يخطر على بال أحد أن يجرأ على أن يضع صورة.. أي صورة في منزله بل صورة كبيرة بهذا الحجم ومن أين ياترى قد أحضرها؟!

لقد ظللت أحملق في تلك الصورة بدون أن أتخطى عتبة الباب،وأنى لي أن أفعل؟ ألا تخرج الملائكة من مكان معلق فيه الصور.. ليحل محلها الشياطين والمردة؟ وعندما لاحظ ترددي تقدم إلى ومد يده مصافحاً.. كانت أول مرة أصافحه فيها،ولما لم يكن في تلك اليد الممدودة مايريب فقد أخذتها بين يدي،فتبسم وقال: هذه صورة الوالد.. أخذت له في لندن منذ سنوات،حين كان في رحلة إلى هناك.. لندن!! ماهذا؟ إذاً ما قالت الوالدة عنه صحيح وعلي أن أحاذر..

خرجت يومها من عنده بثلاثة كتب وبدون أن أجلس في تلك الغرفة المسكونة بالشياطين.. ولم يبد عليه أنه لاحظ شيئاً.. وعندما هممت بالخروج قال:أعد إلي

كل كتاب بعد أن تنتهي من قراءته، وما عناه هو أن أعيدها إليه واحداً بعد واحد، بدون الانتظار إلى أن أنتهي منها جميعاً.. وقد فعلت.

لم يحاول أن يستبقيني في أي مرة أعدت له فيها كتاباً من كتبه، كما لم يطلب إلي الجلوس فكنت أحييه وأعطيه كتابه ثم أعود.. حتى إذا انتهيت من قراءة الثالث منها وأعدته إليه طلب إلي أن أجلس.. حتى يطلعني على عدد آخر من الكتب لكي أختار منها ما أريد.. لقد اضطررت يومها أن أشرب معه فنجاناً من الشاي وأن أمضي دقائق في الحديث معه.. فعلت ذلك كله وأنا متحفز متربص، وهو لايفعل شيئاً سوى أن يبتسم تلك الابتسامة التي وبمرور الزمن تعودت عليها فأنست بها ذات يوم، وكرهتها ذات يوم أيضاً لأنها كانت في كثير من الأحيان تساوي ذلك التعبير ــ إياه ــ «وماعلي إذا لم تفهم الإبل».

سألني يومها رأيي في الكتب التي استعرتها منه وطلب إلي بالذات أن ألخص أحدها وكان رواية مترجمة ففعلت، مما سره كثيراً فاختفت تلك الابتسامة، وحل محلها شبه بريق في عينيه.. وفور انتهاء تلك الجلسة قادني إلى غرفة أخرى داخلية بها مالم يخطر على قلب بشر.. نعم لم

يخطر على قلب بشر.. بها مئات من الكتب مجلدة تجليداً أنيقاً ومرتبة على أرفف خشبية يعلو بعضها بعضاً في تنسيق غريب، ياله من «فرمسوني»!

أشار بيده إلى صف فيها وقال: هذه دواوين من الشعر القديم وهذه أشعار المهجريين ـ لم أعرف طبعاً المقصود بذلك ـ وهذه كتب في الفلسفة،وهذه كتب في الرياضيات،وتلك روايات مترجمة و..و.. وترك قسماً كبيراً لم يشر إليه ... ولم أرد بشيء،فلم تر عيني قبل اليوم هذا العدد الهائل من الكتب في مكان واحد، ومكتبة المدرسة ليس بها حتى ولاجزء يسير مما رأيت،وفي بيتنا لايوجد حتى ولا كتاب واحد.. ولم أعرف ماالذى ينبغي علي أن أفعله؟فترددت حتى شجعنى بقوله: بإمكانك أن تأخذ أيّاً من هذه الكتب فإذا ما انتهيت منه أعدته إلي وأخذت غيره.. ولم أتحرك من مكاني فمد يده وأخذ كتاباً واحداً ومده إليّ وقال: اقرأ هذا..

ويوماً بعد يوم بدأت أعجب بهذا «الفرمسوني» ـ وأعوذ بالله من ذلك ـ وبدأت أجلس معه في غرفته الخاصة نشرب الشاي ونتحدث عن هذا الكتاب أو ذاك.. وأغرب مافي الأمر أن تلك الصورة الكبيرة المعلقة

على الحائط لم تعد تزعجني في شيء،ومع هذا فقد سألته ذات يوم عنها.. وكيف جاز له أن يعلق حراماً في بيته ؟ وبدلاً من أن يرد مباشرة على سؤالي سألني بدوره هل فكرت يوماً في عبادة هذه الصورة..؟ ثم سكت، شأنه في ذلك شأنه مع كثير من الأسئلة التي طالما وجهتها إليه فلم يكن يرد عليها مباشرة،بل بسؤال آخر وابتسامة من تلك الابتسامات المريبة.

مرة قال لي:لا تدعني بالشيخ عمر،بل قل الأستاذ عمر،وتدريجياً أصبح اسمه الأستاذ فقط،ومن يومها وإلى سنوات طويلة ظل الوحيد الذي دعوته أستاذاً،وعنيت ما أقصد.

لاأدري كم هي الكتب التي استعرتها منه ؟ فلقد كانت كثيرة.. لم أكن أقرؤها كلها، بل كنت أبدأ الكتاب وأقرأ منه صفحات فإذا ماراقني تابعت القراءة وإلا أعدته إليه وأخذت غيره..

ولم يكن يضيق بذلك،بل كان يعينني على الاختيار بعد أن عرف ما تميل إليه نفسي.. وبين الاستعارة وردها كنا نتبادل الأحاديث فكنت أطلعه على بعض مايدور في المدرسة وآخذ رأيه في كثير من الأمور، وخاصة

في الحلال والحرام، ومايجوز وما لايجوز وقد كان قليل الكلام موجز العبارة.. سألته مرة عن قضية أثيرت في الفصل،وأردت أن أعرف أين يقف منها و بدلاً من أن يبدي لي رأياً قال:إن كثيراً من الأمور التي تبحث إنما يدل بحثها على استهانة بالعقل البشري وسكت.. ولم أفهم مايقصد ولم يزدني هو أيضاً فسكت..

خلال تلك الفترة وفي العام النهائي بدأت «أخربش» على الورق كلاماً لاأدري أهو شعر أم نثر.. أم رواية.. ولم يرقني شيء منه،فمزقته ثم بدأت كتابة بعض «الأمثال» التي كنت أؤلفها على نمط الأمثال المعروفة حتى تجمع لدي عدد كبير منها، على أنني عجزت عن تقليد بعض الأمثال التي لم أفهم لها معنى مثل «كالمنبت لا أرضاً قطع ولاظهراً أبقى».

وأذكر من الأمثال التي ألفتها يومها «لسانك منك وإن كان قصير» على وزن «أنفك منك وإن كان أجدع».. «ولافي العير ولافي النفير» حاكيته بـ «لافي الكتاب ولافي الشارع» للشخص الذى لم يفلح في المدرسة كما لم يفلح في الحياة العامة.. وقد كنت أحمل بجيوبي كمية من الأوراق البيصاء والأخرى المملوءة بالأمثال،حتى يمكنني مراجعة ماكتبت باستمرار وكتابة

ماكان يخطر بالبال في أي وقت من الأوقات،بل لقد كنت أترك «الناموسية» التي كنت أنام فيها باحثاً عن أوراقي وعن المصباح،لأسجل مايفتح الله به،حتى في ساعات الليل كما يفعل أكابر المؤلفين،وقد كنت منتشياً بذلك وخاصة بعد أن تجمع لدي مايقارب المائة مثل كنت أعدها من عيون الأمثال التي قيلت والتي يمكن أن تقال في أي وقت أو زمان.. ومما كان يزيد في بهجتي أن أحداً لم يطلع عليها،فكنت أسير وأنا منتفخ الأوداج منتفخ الجيوب وكأنما كنت أقول في نفسي:«ليتكم تعلمون». وكانت أعمال التنقيح والحذف والإضافة تتم مرة واحدة على الأقل في اليوم، حتى إذا اقتنعت بأن أعمالي الأدبية الإبداعية قد نمت بشكل مرض حملت زادي ومضيت إليه.. إلى الأستاذ.. متظاهراً بالتواضع والخجل وإن كنت في أعماقي أكاد أنفجر من الخيلاء والزهو. وعندما دفعتها إليه كنت أتوقع أن يطالعها في التو واللحظة،وينهال عليّ بطبيعة الحال مدحاً وتقريظاً ولكنه وضعها بجانبه وسكت.. ولم يؤلمني ذلك بقدر ماأدهشني، إذ كيف يستطيع إنسان أن يؤجل الاطلاع على تلك النفائس ؟ ولكنه فعل..

وفي اليوم التالي زرته ـ كالعادة ـ إذ أصبح الاتصال به جزءاً من البرنامج اليومي لحياتي.. ولقد أعاد إلي أوراقي بدون أن ينبس ببنت شفة،أو حتى بابن شفة.. وظللت أنتظر فترة بدون جدوى،حتى إذا هممت بالانصراف وجدتني مضطراً لأن أسأله رأيه فيما قرأ ؟ فنظر إلي نظرة طويلة ثم قال: ليس فيها أصالة.. كلها محاكاة لأمثال معروفة.. حاول أن تكتب شيئاً تنفعل أنت به.. ولقد كان ذلك آخر ما توقعت،فبعد كل هذه الليالي والأيام التي قضيتها أسوّد صفحات تلو صفحات يقال لي: إن ما كتبت ليس به أصالة.. وقد كدت من فرط الغيظ أن أقول له: أطلعني على مثل واحد ألّفته أنت،حتى وإن كان فيه محاكاة لغيره،ولكنني لم أفعل.. وأسوأ مافي الأمر أنه لم يحاول تلطيف الأمر أو تهوين تلك النازلة،بل ظل في مكانه ساكناً كالصخر،مع أنني بدأت أتفصد عرقاً وأفرقع أصابعي الواحد تلو الآخر. حتى إذا لم أعد أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك حملت أوراقي وجريت مسرعاً تجاه الباب.. ومع هذا فلم يتحرك.. لكم كرهته ذلك اليوم!!.. وتمنيت أن يصاب بكل أذى يمكن أن يصاب به إنسان جزاء ماقدمت يداه.. وأخذت أقول لنفسي: لابد أن هذه أخلاق «الفرمسونية» وماكان ينبغي لي أن أتصل به منذ البداية،وأن أسمع إلى نصيحة

الوالدة.. وقد مر ذلك المساء وأنا معكر المزاج متألم لما أنا فيه لاأجد من أشكو إليه،والوالدة لا تفهم شيئاً في التأليف،مع أنها تحفظ عشرات من الأمثال العامية.. ولقد كانت ليلتي تلك واحدة من الليالي القليلة المؤرقة التي قضيتها، فأنا بطبعي نؤوم لاأضع رأسي على الوسادة حتى أبدأ في استكمال حلم الليلة الماضية.. ولكن هذه الليلة قضيت جزءاً كبيراً منها في جدال نفسي بيني و بينه.. فكنت أجمع في نفسي ماسأقوله له إذا مالقيته،ثم يتراءى لي وقد علق تلك الابتسامة الغامضة على شفتيه فتنهار كل دفاعاتي،وأحاول أن أبني أُخرى من جديد كما أحاول أن أعرف سبباً لهذا الموقف العدائي مني فأنا لاأتذكر أنني جرحته بكلمة.. أو بتصرف..

لم يكن يخطر لي بطبيعة الحال أنه على حق فذلك آخر مايخطر ببال بشر.. وكل ماوصلت إليه في النهاية هو أن «الفرمسوني» إياه قد نفس على ماصنعت،و بذلك أراد أن يعبر عن غيرته بالتقليل من شأن إبداعي الفذ.. ولقد أراحتني تلك الفكرة بعض الشيء.. ولكنها لم تقض على التوتر الذى أصابني نهائياً..

ويوماً بعد يوم بدأت تخف المرارة التي أحسست بها فعدت إلى جيوبي أخرج ذلك الكنز من الأمثال الذى هجرته منذ أيام محاولاً إعادة تنقيحها وتحسينها والإضافة إليها والحذف منها.. وكأن شيئاً لم يكن.

غبت بطبيعة الحال عن منزله وعن استعارة أي من كتبه،وآخر كتاب كان لدي أعدته إليه بواسطة الوالدة التي بدا لي أنها ارتاحت لهذه القطيعة بيني وبينه.. مما آلمني لسبب لم أتبينه آنذاك.. وكان علي أن أبحث عن مكان آخر للقراءة غير ناصية ذلك الشارع الذى يمر به يومياً.. وبعد تفكير طويل سألت الوالدة عما إذا كان بإمكانها أن تشتري لنا «قمرية» أو «فانوساً» أكبر مما كان لدينا حتى يمكنني الاستغناء عن ذلك الزقاق والاستمرار في القراءة بين جدران المنزل.. ففعلت..





«ويوماً بعد يوم بدأت أعجب بهذا «الفرمسوني»ــ وأعوذ بالله من ذلك ــ وبدأت أجلس معه في غرفته الخاصة لشرب الشاي ونتحدث عن هذا الكتاب أو ذاك..»

(١٩)

في حينا ــ كما في غيره من أحياء الدنيا ــ مجموعة من المعتوهين، وبذلك فهو لايختلف في شيء عن حي «الريبربان» في هامبورج أو حي «المونبرناس» في باريس.. اللهم إلاّ في التسمية ــ أحياناً ــ أقصد تسمية المعتوهين.. إذ أنهم في باريس كثيراً مايسمون بالفنانين أو البوهميين.. وعندنا كثيراً مايسمون «بالمهابيل» أو المصابين «بلطف» وفيما عدا ذلك فكثير من تصرفاتهم متشابهة، كما أن ملابسهم متقاربة وأغلبها من ذات الرقاع.. بل إنهم في باريس كانوا كثيراً مايرقعون الملابس الجديدة بقطع من القماش القديم ذات الألوان المختلفة تمشياً مع آخر مستحدثات الأزياء، مما أكد نبوءتي السابقة، وهي أن «الترقيع» سيصبح ذات يوم سمة العصر.. وقد حدث..

بعض هؤلاء المعتوهين ــ في حينا بطبيعة الحال ــ كانوا يهوون الرسم، ولما لم يقم المجتمع بواجبه نحو تشجيعهم فقد أخذوا يرسمون على جدران المنازل في الحي،مستعملين الفحم الذى كان متواجداً بكميات تجارية، وكان العرض منه يزيد عن الطلب، مما يسر

مهمتهم بشكل يدعو للإعجاب.. وقد كان بعض تلك الصور يمكن أن يطلق عليه مايطلق على «الوجودية» الحديثة.. لأنها في الغالب لأناس لم يغطوا أجسامهم حتى بورقة التوت الشهيرة.. كما أن بعضها كان يمكن أن يسمى بالفن التعبيرى لأن هؤلاء المعاتيه.. كانوا يعبرون عما يريدون بتضخيم هذا العضو أو ذاك لتلك الكائنات التي يرسمونها، وكانوا بعد الانتهاء من أعمالهم الفنية يطلبون من هذا أو ذاك من تلاميذ المدارس كتابة اسم واحد من إخوانهم في المعتوهية على هذه أو تلك من الصور.. وكان هؤلاء الأشقياء كثيراً مايستبدلون تلك الأسماء بغيرها، مما يتسبب في حدوث معارك بين ذلك المعتوه ــ أقصد الفنان ــ الذى رسم تلك الصورة وبين صاحب الاسم الذى كتب بجانبها.. وكان ذلك الصراع كثيراً ما ينتهي بإصرار صاحب الاسم على أن يمحى اسمه بواسطة المعتوه.. الذى يصر على أن الاسم المكتوب بجانب تلك الصورة ليس اسم صاحب الشكوى، وإنما اسم إنسان آخر.. مضيفاً ــ وهو يخاطب خصمه ــ ألا تعرف القراءة؟! هل أنت مجنون؟!.

وأضخم تلك المعارك نشبت بين معتوه مشهور بخفة ظله ــ بجانب خفة عقله بطبيعة الحال ــ وبضخامة

جسمه بشكل ملفت للنظر وكأنما هو من المخلوقات التي تعيش في الكواكب الأخرى، والتي بدأت في غزو هذا العالم منذ سنوات. فلقد رسم المذكور صورة بذيئة لشخصين متقاربين من بعض في وضع يخدش الحياء.. ثم طلب من أحد أشقياء التلاميذ أن يكتب اسم «فلان» من المعاتيه على إحداها كما جرت العادة.. ولقد كتب ذلك الشقي اسم أحد عتاة الحي من كبار المقاتلين والمشاغبين، فما ان رأى المذكور ذلك، حتى أمسك المعتوه من مؤخرة رأسه مقسماً أن سيجعله يلعق تلك الكتابة بلسانه حتى يزيلها ولقد أصر المعتوه على أن لايفعل، وقاوم مقاومة بطولية.. وتجمع الناس والصبية، بعضهم يشجع المعتوه حتى يبطش بغريمه، وبعضهم يشجع الآخر، والعقلاء من أهل الحي — وماكان أكثرهم — كانوا يحوقلون ويوصون الطرفين بتحكيم العقل!!.

كيف لمعتوه أن يحكم العقل؟!.

ولم يحل تلك المشكلة إلا معتوه آخر تطوع بأن يلعق هو تلك الكتابة بشرط أن يدفع المتهم «هللتين» قيمة كأس من الزبيب المنقوع، كان يباع كمرطب قبل اختراع مصانع المشروبات الغازية.

وقد كان من مشاهير الحي آنذاك معتوه جمع له «لطفان» فهو معتوه وأعمى في الوقت نفسه، وقد كان يعرف في الحي باسم «القذيفة» إذ لم تعرف الصواريخ آنذاك.. وسبب هذه التسمية أنه كان يسير بسرعة فائقة ـ بالرغم من عماه ـ وعصاه تتقدمه، بحيث يصطدم بكل شيء في طريقه، بالناس، وبالبهائم، وعلى الأخص بالباعة الذين كانوا يعرضون بضائعهم في صف طويل وسط برحة «الطفران» حتى إذا اصطدم بشيء أو بإنسان صاح بأعلى صوته.. ماهذا؟! هل أنت أعمى؟! كان يقول ذلك للأشياء وللناس والبهائم على حد سواء، ثم يتابع سيره منحرفاً يميناً أو شمالاً وفقاً لاتجاه الصدمة التي حدثت له. ولطالما أصيب بالكدمات والجروح،نتيجة لهذه الحوادث التي كانت تقع له، ومع هذا فلم يغير طريقته في التعامل مع البشر وغير البشر.. ربما كان ينقصه جهاز الإنذار المبكر الموجود في رؤوس كل الناس من مخلوقات الله. ولم يختف من الحي إلا بعد أن اصطدم بحمار كان يملكه أحد الوجهاء، وليست الصدمة في حد ذاتها هي التي أدت إلى اختفائه، بل ماحدث بعدها، إذ يبدو أن الحمار قد تشاجر مع المذكور على إثر تلك الصدمة فانهال المعتوه على أذن الحمار عضاً.. حتى كاد أن يقطعها،ومن

ثم شكا صاحب الحمار «إلى عريف مخفر الشرطة» الذى صحب المعتوه إلى «المارستان» وأودعه فيه.. وبذلك انقطعت أخباره نهائياً.

ولو كانت لدينا جامعة للإعلام أو الصحافة آنذاك لَدُرِّس هذا المثل الواقعي على أنه خبر صحفي يستحق الذكر، فليس من المتيسر في كل يوم الحصول على إنسان يعض حماراً، ولاستغني بذلك عن المثل الذى يمثل الأفكار المستوردة والذى يتحدث عن القسيس الذى عض كلباً.. باعتبار أن ذلك خبر صحفي، على عكس ما إذا عض الكلب القسيس..

وبالرغم من بعض الحوادث التي كانت تقع من وقت لآخر نتيجة لتصرف هذا أو ذاك من «المباركين» إلا أن علاقتهم بالحي وأهله كانت علاقة ودية إلى حد كبير وكانوا يمثلون جزءاً لايتجزأ من البرنامج اليومي للحي. بل إن بعضهم كان يقوم بدور ترفيهي له.. فلقد كانت أول فرقة موسيقية تتكون في حينا هي من صنع هؤلاء.. اجتمع بعضهم وقرروا تكوين الفرقة المشار إليها مستعملين بعض البراميل الفارغة.. أو أواني الصفيح التي كان يستورد فيها هذا أو ذاك من السوائل... وكانوا

يقفون عصر كل يوم في تلك البرحة، يعزفون على تلك الأوتار «البراميلية» مستعملين العصي للقرع.

وعندما أحسوا أن من واجبهم التنويع كَوَّن ثلاثتهم ــ وكان هذا هو عددهم ــ فرقة «للسرك» وأصبحوا يعرضون بعض الألعاب والحركات، كما كانوا يحملون بعضهم الواحد فوق الآخر، حتى إذا انتصب ثالثهم واقفاً صاح «الله ينصره» ولم يعرف أحد من المقصود بذلك.. والمضحك في الأمر ــ إن كان مضحكاً ــ أن عملية الحمل هذه لم تكن تتم بشكل منطقي بمعنى أن يحمل البدين منهم الآخرين، بل كان العكس هو الذى يتم، أليسوا مجانين!! وما إن ينتهي العرض حتى يصرخ الحامل الأول بأعلى صوته مهدداً «المجانين» الذين ركبوا على ظهره..

و يبدو أنه كان يستمتع ــ في دخيلة نفسه ــ بحمل هذا أو ذاك من رفاقه في برامج منفصلة لا علاقة لها بالبرنامج الجماعي، ولهذا فإنه كثيراً ما كان يحملهم، واحداً واحداً ــ زقفونه ــ من البرحة إياها إلى البئر أي حوالي مائة متر محاولاً الركض إن أمكن معتبراً أن وصوله

إلى البئر سالماً ــ أي منتصباً ــ نصر له، أما إذا وصله غير ذلك فإنه يعتبر ذلك هزيمة للراكب، عجيب أمر هؤلاء المجانين..!!

وقد كانت خدماتهم للحي جلى، فلم يحدث مثلاً أن عجز إنسان في حينا عن الوفاء بنذر، لأنهم دائماً متواجدون، يحضرون ولائم النذور، و يأخذون صدقات الفطر و يلتهمون ماتبقى من حفلات العرس أو المآتم... كما كان الحي يستعمل بعضهم في حمل هذا أو ذاك.. مما ينبغي حمله من أكياس الأرز أو صناديق الشاي ــ والشيء الوحيد الذى لم يكن يسمح لهم بحمله هو أثاث الأعراس ــ إما خوفاً عليه وإما تشاؤماً بهم، كما كان الباعة يستعملونهم في نقل أخبار الباعة الآخرين إليهم، وهل لدى فلان من الزبائن أكثر مما لدي؟! وهل بقي شيء من بضاعته أم لم يبق؟ كما كانوا يستعملونهم أيضاً في بعض عمليات التخريب المقصود، مما يدل على أن الإرهاب الدولي والابتزاز من الطبائع المتأصلة في بعض البشر.

وأكبر عمليتي تخريب تمتا في عهدنا تتعلقان ببائعين جديدين، دخلا الحي من حي آخر مما هدد الباعة المحليين بمنافسة غير شريفة لا تؤمن «بوائقها» فاستعمل المعنيون

بالأمر منهم اثنين من هؤلاء المعتوهين للقيام ــ بتصفية هذا الخطر ــ حيث تولى أحدهما السير خلف بائع يحمل «دُوّاراً» مليئاً بزبادي اللبن والقشطة.. حتى إذا وصلا ــ البائع والمعتوه ــ أسفل سقيفة الصفا المظلمة والضيقة وكزه في جنبه وكزة أخلّت بتوازنه، فسقطت بضاعته بزباديها على الأرض فتكسر أغلبها وتلفت البضاعة نهائياً.. وقد وقف المعتوه على بعد خطوات، يحوقل و ينصح البائع بألاّ يعود إلى هذا الحي فإنه «مسكون».. أي تسكنه العفاريت والجن..

أما ثانيتهما فقد حدثت حين ألقى معتوه ــ بإيعاز من بائع آخر ــ جردلاً مليئاً بالماء القذر وسط «مقلاة» مليئة بالزيت الحار كانت جاهزة لقلي أقراص «المقلية».. التي كانت تمثل نوعاً محبباً من الطعام يتناوله أهل مكة في العشاء.

لقد رأيت يومها لأول مرة إنساناً ملتحياً متقدماً في السن يبكي.. بحرقة لفقدان جزء من رأسماله بل ربما كله.. بعد أن تناثر الزيت المخلوط بالماء القذر بشكل أفسد كل شيء بمافيه «العجنة» التي كانت معدة لتلك الليلة.

وبطبيعة الحال اختفى ذلك البائع من الحي بعد تلك الحادثة عائداً إلى حيّه القديم تاركاً البائع الآخر وحده في الحلبة مما أفقد الحي فوائد التنافس بين البائعين.. على قاعدة «إذا تنافست الخيول سعد الركاب».



(٢٠)

لم تكن العقد النفسية قد اخترعت بعد من ضمن ماالخترع مؤخراً، ولذا فليس من الممكن القول إن هؤلاء المعتوهين مصابون بهذه أو تلك من العقد.. ولكن لما كان لكل شيء سبب، فقد جرى البحث والتحرى من قبلنا عن حقيقة الأمر فاتضح لنا، أن ما أصابهم جميعاً يمكن أن يدخل في باب العقد الفقرية ــ نسبة إلى الفقر ــ لا إلى العمود الفقري.

أول هذه العقد ــ عقدة الروشان ــ كان مصاباً بها معتوه شاعري المزاج كثير الغناء وترديد المواويل.. وكان أشهر موّال يردده ويشجي الحي به موّال:

«إن مت فادفنوني على ركن روشان»

والروشان كان رمزاً للوجاهة،وكلما علا البناء كثرت الرواشين وكثر هياج المعتوهين المصابين بعقدة الروشان.. والمعروف أن الفقراء «والمستورين» كانوا يسكنون بيوتاً متواضعة، من طابق واحد فقط، به غرفة أو اثنتين «مقعد أو مقعدين» ليس إلآ.. ولا أحد يدرى هل كان ماخلف الروشان هو السبب في نشوء تلك العقدة أم الروشان ذاته بخشبه.. ونقشه.. وأبهته التي ضاعت مع ماضاع؟.

«والفول» مع أنه كان إفطار الناس ـ كل الناس ـ إلاّ أن «عقدة الفول» قد وجدت في ذلك الحي.. وكان يمثلها معتوه شاب مفتول العضل، كان يأتي كل صباح إلى «فوال الحي» وقد وضع مائدة خشبية طويلة خارج دكانه، ووضع أمامها عدداً من الكراسي الصغيرة التي تكاد تلتصق بالأرض، حيث يصطف الأكلة عليها واحداً لصق الآخر، حتى إذا اكتمل عددهم أو كاد قدم المعتوه إياه حاملاً تحت إبطه «رغيفاً» حاراً تبرع له به أحد الخبازين بشكل مستمر.. وما إن يصل إلى تلك المائدة التي تفوح منها رائحة تلك الأطباق الشهية حتى يبدأ في أخذ قطعة من خبزه محاولاً المرور بها على ارتفاع متر أو أكثر فوق «طبق» أول آكل.. ثم قطعة ثانية فوق طبق الثاني فالثالث وهكذا.

ومع أن أحداً لم يكن يضار مادياً بتلك المشاركة «الهوائية» إلاّ أن كثيراً من الأكلة كانوا يتضايقون من المذكور ـ أقصد المعتوه ـ فينشب صراخ وصياح، والمعتوه يلح و يصر على الأكل «لقمة واحدة فقط» من أجل الله.. و يبدو أنه كان ينتشي بهذه الطريقة في الأكل «على الريحة» التي أتقنها وزاولها يومياً و بدون انقطاع.

ولو كان في زماننا عشر مافي هذه الأيام من الباحثين الميدانيين لاستطاعوا تسجيل ظاهرة «العقد الفقرية» التي كانت شائعة آنذاك،قبل أن تصبح من ذكريات الماضي، وقبل أن يجمع أولئك المباركون، في مكان واحد، فيحرم الناس من التعايش معهم، والاستفادة منهم.

لابد أن هذا الاختلال أو ذاك في القوى العليا لدى الإنسان يتسبب في تغيير العلاقة بين الأشياء كما يحدث تبديلاً في الألوان والأشكال ولهذا فإن هذه الفئة من البشر ترى في الأشياء والناس مالايرى الآخرون، وبذلك فإن حكمهم على الأمور يختلف عن حكمنا عليها..

كانت تعيش في الحي زنجية كهلة مترهلة الجسم بارزة الثنايا ومع هذا كان يصيح أحدهم كل مامرت أمامه: «ياأحمر الخدين ياناعم يااللي رماك الهوا ياناعم»..

من يدرى ربما كان إحساس المعتوه بالزمن غير إحساسنا.؟ ربما كان قادراً على رؤية الأشياء خلال مدى زمني أطول من اللحظة التي نرى فيها الأشياء.؟ وربما انطبقت هذه النعومة وحمرة الخدين على هذه الكهلة

قبل خمسين عاماً عندما كانت يافعة.؟ وإن محي كل ذلك من أمامنا.. ولكن بقي في مكان ما يراه المعتوهون فقط..

ولعل هذا هو السبب في أننا خلطنا في السابق منذ مئات السنين.. وفي الحاضر منذ خمسين أو ستين عاماً بين الجنون والصلاح.. بين التصوف والانجذاب.. ولكم عاملنا بعض المعتوهين على أنهم من «أهل الله».. فبحثنا عن البركة لديهم، كما أننا استمطرناهم الدعاء.. لهذا السبب أو ذاك.



لابد أن بذرة التأليف التي بدأت تنمو في نفسي من غير أن أشعر بها،والتي أثمرت تلك الأمثال القيمة أول ماأثمرت أخذت تترعرع في صمت بدون أن أشعر بها.. فلقد أخذت تراودني فكرة كتابة قصة طويلة،أو رواية كما يسميها البعض.. على نمط بعض الروايات المترجمة التي كنت قد قرأتها.. ولكن عن ماذا أكتب..؟! إن كل رواية قرأتها فيها بطل أو أكثر.. وكذلك بطلة أو بطلات. فمن أين لي بالأخيرات وأنا لم أر أنثى في حياتي ؟ الوالدة والخالة ليسوا إناثاً بالنسبة لي ! وكيف لي أن أعرف كيف يفكرن وكيف يتصرفن؟ إن معرفتي الجيدة بنون النسوة وموقعها من الإعراب لايجعل مني عليماً بشئونهن.. وبعد تفكير مستمر قررت أن أبحث أول الأمر عن عنوان لتلك القصة ثم أبحث عن الموضوع والأبطال.. فاهتديت إلى اسم بدا لي مناسباً للغاية «ليالي السطح».. باعتبار أن تلك اللحظات والساعات التي أقضيها على سطح المنزل هي أكثر ما في الحياة شاعرية.. وأكثرها أمناً وسلاماً بصحبة النجوم اللامعة والليل الساجي.. وشيئاً فشيئاً بدأ الجنين ــ البطل ــ ينمو في ذهني ثم على الورق فإذا هو شاب مراهق.. ذو حساسية

عـالـية تجعله يتأثر حتى لضوء القمر ــ على طريقة أولئك المـصـابين بجـنـون الـقـمر،والذين قرأت عنهم فيما قرأت تلك الأيـام ــ واسـتـمـر نمـوه فـي اضـطـراد حـتـى مـلأت عنه صفحات وصفحات، مما أذهلني أنا ذاتي.. فمن أين أتيت بـكـل هـذه الانـفـعـالات الـتـى ملأت نفس الفتى إياه.. وكـيف أمكنني أن أسلسل حياته على هذا النحو الذى لم يخطـر لـي عـلى بال قبل أن أبدأ الكتابة عنه.. حتى إذا انتهيت من الفصل الأول أيقنت أن ما قيل عن الشعر من أن أعذبه أكذبه إنما ينطبق على غيره أيضاً..

ولـقد «وقف حمار الشيخ في العقبة» بعد ذلك الفصل مـبـاشـرة.. فـتـلـقـيـت الـدرس الـثـانـي فـي حياة الكتابة والـكـتـاب «لا تستطيع أن تؤلف في أي وقت تشاء» بل عندما تكون شياطين الكتابة مواتية.. ومن سوء الحظ فإنها لم تصبح كذلك إلى سنوات وسنوات..

لـقد أعجبت بما قرأت،وقررت أن أحمل أوراقي وأصلح ذات الـبين مع الأستاذ،فمهما كان رأيه فيما سأقدم إليه فإنه لايـسـتـطـيـع أن يقول:«ليس فيه أصالة» لعله سيجد شيئاً آخر يقوله.. لنر .

و بـعـد أيـام عـدت إلـيه متوقعاً شراً.. ولكنه ابتسم..

ابتسامة عذبة،غير تلك الابتسامة الباهتة التي كان يعلقها على شفتيه و يتركها هناك و يستأنف مسيره في الحياة.. بل لقد تحرك من مكانه حين رآني.. الأمر الذى لم يصنعه قبل ذلك اليوم... وعندما أعاد إلي أوراقي مع كلمات التشجيع المناسبة.. أعاد معها أحد كتبه وقد سطر عليه إهداءاً رقيقاً موجهاً إلى الشاب النابه «محيسن» بمناسبة أول إنتاج أدبي له.. كانت تلك مفاجأة لم أتوقعها حين سعيت إليه ذلك اليوم.. لم أكن آمل في أكثر من أن يعيد إلي أوراقي بدون حكم بالإعدام عليها.. أما أن يقبلها ويمتدحها.. فلا.. فما بالك وقد رافق ذلك هدية ثمينة تحمل اسمه..

ولقد اجتهدت كثيراً في أن أضيف إلى ذلك «الفصل» فصولاً أخرى لتكمل القصة على نحو أو آخر ولكن بدون جدوى.. لقد كانت بيضة الديك.. وحيدة لاشقيق لها ولاشقيقة.. وكلما قابلت الأستاذ كان يسأل وأين الباقي؟فأبتسم وأقول:في الطريق... وما أطول ذلك الطريق..!!

وبعد أسابيع نسينا «ليالي السطح» .. ولم يصبح الشاب النابه أديباً كما ورد في النبوءة..

لم أنقطع عن زيارته،وقد أصبحت في آخر عام دراسي،بل لقد أصبحت تلك الدقائق التي أقضيها معه أجمل مافي اليوم كله..

وفي إحدى هذه الزيارات اقترح علي أن أعطي ابنه «جميل» دروساً في اللغة العربية.. وبرد لم أتوقعه أنا «ذاتي» قلت:وأنت تعطيني دروساً في اللغة الانكليزية.

من أين جاءتني هذه الفكرة وكيف أمكنني الرد بهذه السرعة الخاطفة التي تفوق الحاسب الآلي..؟ لابد أن عقل الإنسان عقلان.. كما يقولون،عقل يتصرف على هوانا نحن،وعقل يتصرف على هواه هو.. وبذلك نفسر مثل العوام «فلان أبو عقلين» أي أن له آراء وتصرفات لاتخطر عادة على عقول البشر.

لقد فغر الأستاذ فاه بشكل عفوي أدخل السرور على نفسي، ربما كان يتوقع أن أعتذر متظاهراً بالتواضع فيلح.. ومن ثم اعتذر.. ثم يلح فأوافق قائلاً: إنني لاأضمن النتائج ولكنني سأحاول.. بل لعله كان يتوقع أن أسكت فيقول وسأعطيك «مجيدياً» كل شهر..

ربما خطر له هذا الاحتمال أو ذاك،بل ربما أعد نفسه لعشرة ردود مختلفة ولكنه بالتأكيد لم يتوقع ما قلت. فعدد

الذين يعرفون في حينا أن هناك لغة في الدنيا اسمها الانجليزية ربما كان صفراً. وهذا الصفر من العدد لا ينظر إليها على أنها شيء يسعى إليه،فهي أولاً لغة النصارى وهي ثانيا لغة لايستفاد منها ألبته، ولو كانت مفيدة لسعى إليها أهل مكة،المشهورون بأن لديهم قدرة على تعلم اللغات المختلفة،بما فيهم أنا،فلقد كنت أجيد بعض كلمات في أكثر من لغة.. من لغات الحجيج وإلى اليوم أستطيع أن أشد بلغة «الهوسا» من سكان نيجيريا.. دايا.. بيو.. اكّو قوما شيشدّة.. ظللت أحملق فيه وأنا منتشٍ بما صنعت مما زاد في حيرته.. فقرر أن يقول شيئاً.. ولكنه تلعثم.. مما اعتبرته نصراً كبيراً لذاتي.. وأخيراً قال كلمة واحدة فقط: «موافق». فقلت:«يوم بيوم» أعلمهم ثلاثة أيام في الأسبوع وتعلمني أنت ثلاثة.. ويوم الجمعة راحة لكلينا.. فهز رأسه.. وهكذا بدأنا..

كان ابنه «جميل» زميلاً لي في مدرسة الحي وكان هو نفسه ذلك الفتى الذى تسبب في «جرجرة» سفيان إلى مخفر الصفا.. حيث تلقى «البصقة» المشهورة. نعم كان زميلاً لي،ولكنه كان من النوع الذى لايترك في الدنيا دوياً يجعل الدهر يضع أصابعه في أذنيه، بل إنه غير قادر أن يترك في الدنيا همساً.. وإذا شئت الحق فإن

الدهر لايعلم بوجوده ـــ ولولا أن الأستاذ قد انتقل إلى دنيا غير هذه لما جرأت على أن أقول ذلك ، نعم فقد كان من النوع الذى نطلق عليه أنه «بليهاني».. أي أنه أبله مصغر.. ولايعرف أحد كيف يولد لإنسان كالأستاذ ابن كجميل.. لعل عرقاً نزع في جميل.. كما تفعل الإبل حين تلد الشقراوات منها السود، أم ترى أنه تطبيق لقاعدة الرجوع إلى الوسط، التي يزعم علماء النفس أنها تحصل عندما ينكح ذكي ذكية،فبدلاً من أن يكون أبناؤهم أذكى منها فإنهم يصبحون أقل ذكاءً ... إذا كان ذلك هو السبب فإن جميلاً قد عاد إلى الوسط مع ميل إلى الخلف.

لم أدرسه ألفية ابن مالك.. بطبيعة الحال.. وكيف لي أن أفعل وهو لايفرق بين العصا «الخيزرانة» وبين فعل عصى.. وعندما عرف أخيراً أن في الدنيا شيئاً يقال له اسم وشيئاً يقال له فعل.. أصر علي أن مسرعاً ـــ في جملة «الولد مسرع» فعل والفاعل محذوف تقديره هو.. لم أستطع لا أنا ولا الأستاذ ولا أم جميل التي جاءت ملثمة عندما سمعت صياحنا ، لم يستطيع أحد أن يقنعه بذلك مما جعل أذني الأستاذ تحمران،وأم جميل تتوسل إلينا أن نقبل منه «هذه» ـــ مقابل أن يقبل هو غيرها في الدرس

القادم.. فاحمرت أذناي ـ أنا ـ حينذاك محاولاً إفهامها بأن الاسم اسم والفعل فعل، ولايمكننا التساهل في ذلك.. ولكنها قالت: «كله فعل الله» .. فباءت حجتي بالفشل.. وانسحب الأُستاذ لغرفته، وتركني أحاول حل العقدة التي أصبحت شائكة أكثر مما كانت من قبل..

وبعد عدة أسابيع أحس كل منا أنه غبن بهذه الصفقة، فالأُستاذ قد ألزم نفسه بمالم يرد أن يلزمها به..

وعدد الكلمات والجمل التي حفظتها كانت أكثر مما كان يتوقع.. في حين أن جميلاً لايزال يخب حيث هو، و ينسى اليوم ماحفظه أمس. وأم جميل تحوقل لأنني «لاآخذه على قدر عقله».. وجميل كان يزداد عناداً كل يوم، فيوافق يوماً على أن «في» حرف ثم يغير رأيه و يصر على أنها اسم... بدليل أنا نقول عندما نسأل هل فلان بالبيت.. نقول «في» ونقصد موجود..

وبالرغم من أنني كنت أترك البيت بيت الأستاذ وبي شيء أشبه بالدوار، إلاّ أنني كنت مستمراً في المحاولة.. ولم يكن السبب بطبيعة الحال الحرص على نشر العلم ـ بقدر ماهو الحرص ـ على تلقيه في شكل لغة لايعرفها أحد في الحي إلاّ الأستاذ وأنا ـ مستقبلاً.

لقد كنت أتقدم بخطى سريعة شأن من يخاف أن تفلت منه فرصة لن تتاح مرة أخرى ـ وجميل كان يتقدم بخطى ذات اتجاهين،على قاعدة للأمام مرة وإلى الخلف مرتين. ومع أنني أفلحت بعد بضعة أشهر في الاتفاق معه على مجموعة من الكلمات،بحيث أصبح من المتعارف عليه بيننا أن هذه فعل وتلك اسم والثالثة حرف،إلاّ أنه كان بين الفينة والفينة يراجع نفسه ويجادل في صحة ماأقول.. ولكني-وقد احتطت للأمر-كنت أريه الصفحات التي كتب فيها بخط يده تلك الكلمات،والتي تحدد فيها بشكل نهائي هويتها.. ولاعدول عما تقرر.

بدأت أحس أن الأستاذ يريد أن يلغي العقد الذي تم الاتفاق عليه بيننا،فبدأت في رسم استراتيجية مضادة.. حيث راجعت مع جميل تلك الكلمات.. بجانب الجمل التي أمكن إعرابها.. بالاتفاق معه ثم دعوته إلى جلسة عمل بحضور الأستاذ،حيث أخذت أسأله عن هذه الكلمة أو تلك.. كنت أحوقل في سري.. وأدعو الله أن لايتطفل «الفرمسوني» فيسأل عن كلمة من تلك التي لايزال النزاع ناشباً حول هويتها.. ولكن كل شيء مر بسلام فطلبت من جميل العودة إلى الغرفة التي كنا نتدارس فيها وبقيت مع الأستاذ محاولاً معرفة الأثر الذى تركته المقابلة في نفسه..

لقد رفع رأسه وقال: ماكنت أعتقد أن أحداً باستطاعته أن يقنع جميل: بما أقنعته به.. وسكت.. ثم أردف: لقد طلبت إليك أن تعطيه هذه الدروس بعد أن فشلت أنا في ذلك.. ويبدو أن تقارب السن بينك وبينه.. له أثر في ذلك.

وسواء أكان فارق السن بينه وبين ابنه هو السبب في فشله أم لا، فقد تأكدت أنني سأستمر لبضعة أشهر أخرى.. أعلّم.. وأتعلم..



مع نهاية ذلك العام انتهت ـ أو هكذا بدا آنذاك ـ علاقة الطالب «محيسن» ـ الذى هو أنا ـ بالمدرسة إياها بعد أن تخرج منها حاملاً أعلى شهادة يمكن أن تعطى لإنسان في أوائل القرن الرابع عشر الهجري.. ولقد أقيم كالعادة حفل مدرسي توزع فيه الهدايا على المتفوقين.. والشهادات على الذين تخرجوا نهائياً.. متمنية لهم التوفيق في الحياة العملية.. ولقد تخلل الحفل كثير من الكلمات وتمثيلية هي عبارة عن مناظرة بين العلم والجهل، انتهت بانتصار العلم بطبيعة الحال، بالرغم من أن الأدلة التي ساقها الجهل عن فضله.. كانت مدعمة بكثير من الأمثلة على راحة بال الجهلاء، واستمتاعهم بالحياة على عكس العلماء الذين يشقون بعلمهم..الخ.. وانتهت التمثيلية بـ«هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون» فأُفْحِمَ الجهل الذى لم يجد آية.. تقوى حجته.

لقد كنت أتصور أن ذلك اليوم سيكون آخر يوم أرى فيه تلك المدرسة التي أمضيت فيها ستة أعوام كاملة من حياتي.. ولكن هيهات.. فما أن انتهت فقرات الحفل و بدأ المدعوون في مغادرة القاعة ـ أقصد الغرفة ـ التي أقيم فيها الحفل حتى تقدم نحوي المدير إياه مشيراً بأصبعه :

يـاولـد.. ياولد.. مما جعلني أظن آنه يحدث شخصاً آخر..
ــ كـيـف لي أن أتصور أنني لازلت ولداً، بعد كل الذى قيل في الحفل من تقريظ لخريجي العام؟ ولكنه استمر في إشـارتـه.. فـلـم أجـد بـداً مـن أن أخـطـو نحـوه.. وعـنـدما أصـبـحـت على مقربة منه قال: أريد أن أتحدث معك في أمر يهمك.. تعال إلى مكتبي غداً صباحاً.

كـان ذلـك الـغـد أول صـبـاح أنـام فـيـه كما يحلو لي مـسـتـشـعـراً لـذة الفراغ، وعدم الالتزام بوقت معين للنهوض والجـري نحـو المـدرسـة قـبـل أن يـغـلـق «البواب» أبوابها.. وكـانـت الـوالـدة احـتـفـاءً بـي أعدت «عريكة» صنعتها بـنـفسها ثم أغرقتها بكوب من السمن البري.. كما أوقدت نـاراً صـغـيـرة فـي «المجـمـرة» ووضعت فيها بخوراً رائعاً.. ظلـت رائحته في أنفي كلما تذكرت ذلك اليوم.. وعندما تحـركـت «ضحى» أريد الخروج لمقابلة المدير وضعت في جيـبـي لـفـة صـغـيـرة جـداً مستديرة بداخلها.. مالأدرى ماهو؟ قائلة يحرسك الله من العين.

فـي الـغـرفـة إيـاهـا ــ تقدم الولد ــ أنا ــ نحو المدير الـذى أشار باصبعه أن أجلس فجلست.. وبعد أن دعانى لمـشـاركته في شرب فنجان من الشاي قال: إن بالمدرسة وظيفة مدرس شاغرة، وإنه قرر تعييني فيها لأنه يعتقد أنني

أصلح للتدريس... ثم أضاف أن مرتب الوظيفة عشر مجيديات ـــ شهرياً.. وسكت..

وكمن فتح عينيه لأول مرة بعد أن ظلت مغلقة سنوات وسنوات أخذت أحملق فيه... وفي فنجان الشاي الذى بيدي.. غريب أمر هذا الكائن الذى هو أنا، لم أفكر طيلة هذه السنوات في ماذا عساي أن أفعل بعد أن أنهي دراستي؟ ولايبدو أنني كنت مهتماً بذلك.. ولماذا تراني أهتم..؟ لقد كانت كل طلباتي ملباة.. على كثرتها.. ثوبا العيد.. ونعاله ودفاتر المدرسة ومصروف اليوم.. كل ذلك كان يأتي في موعده من الوالدة.. وإفطاري والعشاء كانا دوماً متواجدين فلماذا يفكر الانسان، أي إنسان في الغد..؟

مالك مبلّم؟ هكذا قال،وأنا لاأزال أحملق في الفراغ وكدت أن أقول:دعني أستأذن الوالدة أولاً.. ولكنني لم أفعل فأعاد السؤال: تكلم.. تكلم.. هل أنت أبكم؟

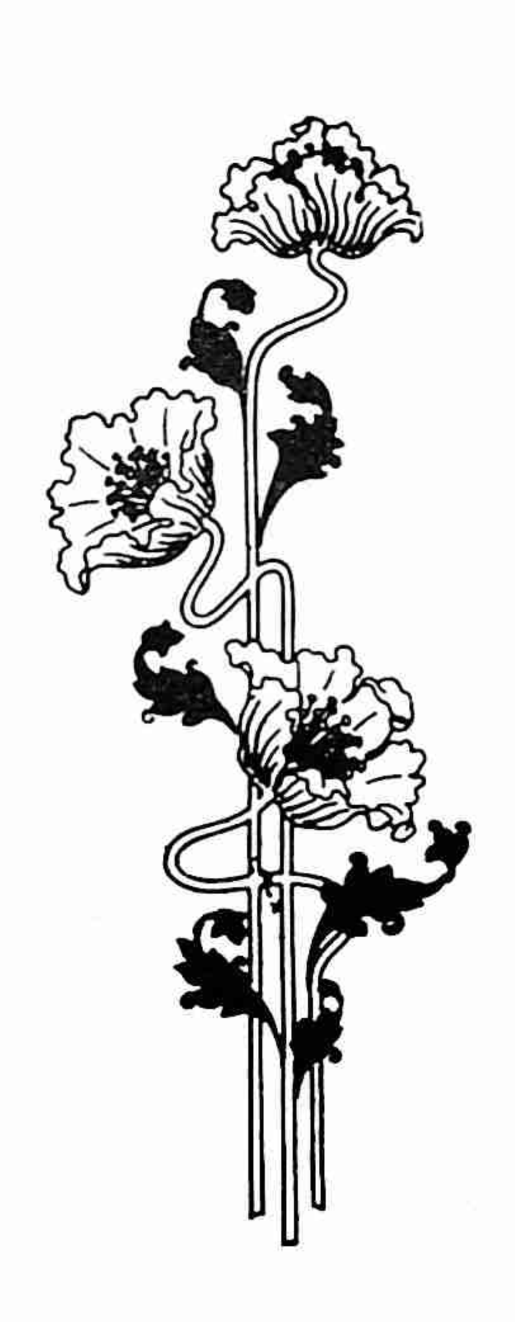
فقلت بدون وعي: أنا لست ولداً.. فأرجوك لاتدعني بذلك!! فالتفت حواليه كما فعل في المرة الأولى يميناً وشمالاً ثم قال: أكلمه في الشرق فيكلمني في الغرب!!

قلت:أرجوك. أنت لا تدعو بقية المدرسين بالولد.. وإنما بالأستاذ أو الشيخ.. أو أبوفلان.. أو مولانا.. فلماذا أنا من دون خلق الله تدعوني بالولد وأمام الناس. فضرب كفاً بكف.. وقال:لاحول ولاقوة إلا بالله.. أولاد هذا الزمان!! ثم أضاف: يامحيسن ياابني أنت أصغر من أولادي.. فقلت: إن تدعوني ياابني فذلك مقبول أما الولد هذه فلا.. فقال: حسناً ياابني.. دعنا نتكلم في الوظيفة التي عرضتها عليك.. فقلت:ذلك مالم يخطر لي ببال.. قبل هذه اللحظة.. كنت أتصور أنني لن أرى هذه الغرفة بعد يوم أمس وها أنت قد ربطتني إليها.. فدعني أحاول أن أتصور نفسي في هذا الوضع الجديد.. قال كمن لم يفهم شيئاً:تتصور نفسك؟ ماذا يعني هذا الكلام؟ أعرض عليك أن تنضمّ إلى مجموعة المدرسين،وبدلاً من أن تشكرني وتقبل رأسي تريد أن تتصور نفسك.؟

ولما أحسست بأن هذا النقاش لن يجدي شيئاً قلت: موافق.. فالتفت مرة أخرى حواليه وقال: موافق..؟ قل: شكراً.. قل:جزاك الله خيراً.. ماهذه(الموافق)التي ذكرتها وهل سألتك هل أنت موافق أم لا؟ قلت: أقدر لك رعايتك.. فقال.. أخيراً تكلمت .. وصب لي فنجاناً ثانياً من الشاي وهو يقول؛ستقفل المدرسة أبوابها منذ الغد

ولن تفتحها حتى موعد امتحان الدور الثاني، وعليك أن تشتري لك جبة وعمامة وأن تقابل «المعاون» أي، مساعده يومياً بعد صلاة العصر في المسجد، ولسوف يقدم إليك بعض الإرشادات والنصائح حول طريقة التدريس ومعاملة الطلبة.. وعليك أن تراجع هذا الكتاب ـ ودفع إليّ بكتاب كان في يده ـ لأنك ستدرّس «النحو» والنصوص.. وكتدريب عملي لك، فلقد اتفقت مع آباء بعض الطلبة الذين لم يجتازوا الامتحان لتعطيهم بعض الدروس الخاصة ولسوف.. يجتمعون بباب «الدريبة».. توجد هناك خلوة تابعة لأحد هؤلاء الآباء، فبعد أن تصلي المغرب تذهب إلى هناك وتبدأ معهم.. منذ بعد غد.. وو.. واستمر .. مدة طويلة يحدد لي أبعاد البرنامج الذى وضعه لي.. سيعطونك مجيدياً في الشهر وإذا مانجحوا فلسوف يعطيك كل أب مجيدياً إضافياً.. وإذا مابدأت الدراسة بعد شهر رمضان إن شاء الله فاتني إلى البيت لأمتحنك في المادة التي ستدرّسها.. وتذكر دائماً يامحيسن أن الطلبة ثلاثة أنواع.. واستمر لمدة ساعة كاملة يحدثني عن الطلبة، ومشاكلهم والمدرسين ومشاكلهم أيضاً وإدارة المدرسة.. ومشاكلها.. وو.. مما غير رأيي فيه فجأة فهو ليس ساذجاً.. ولا بسيط التفكير كما أنه ليس فظاً كما كان يبدو لي.

وبانتهاء الجلسة «قبّلت» رأسه بالفعل كما كان يتمنى، فانبسطت أسارير وقال: لقد ولد لي ابن رابع اليوم.



بيتنا في حي «أجياد» والذي تركه الوالد بعد وفاته بيت متواضع ليس فيه مايلفت النظر، ولكنه بالنسبة لنا كان كل شيء في هذه الحياة.. كنا نسكنه أو على الأصح نسكن جزءاً منه خلال العام ونؤجره أو ـ إن شئت ـ نؤجر أغلبه خلال موسم الحج، ونعيش أنا والوالدة في بحبوحة طيلة العام على ذلك الإيجار، لم نحتج إلى إنسان طيلة تلك السنوات، ولم نحس أننا نرغب في المزيد..

كان مكوناً من عدة غرف يصعب وصف علاقتها ببعض.. ولعل ذلك راجع إلى شكل الأرض التي بني عليها.. وهي ـ الأرض ـ ليست شاذة عن بقية الأراضي التي عن يمينها وشمالها.. كانت أرضا مستطيلة تبلغ عند المدخل وعلى الشارع مالايزيد عن ستة أمتار فقط ولكنها تمتد في العمق إلى مايصل إلى ثلاثين متراً أو أكثر ولهذا فعندما تدخل البيت تجد نفسك في دهليز طويل مظلم في أوله.. وبعد أن تخطو بضعة أمتار تجد إلى يسارك باباً يوصل إلى «المقعد» أو غرفة استقبال الضيوف، وهي غرفة مربعة لاتزيد مساحتها عن أربعة

أمتـار فـي أربـعـة، ويخدمها «مستراح» صغير به حنفية ماء مخصصة وفسحـة صغيرة.. وضع فيها زير الماء الكبير ــ المغـربي ، الذي يمثل أعز مافي البيت وأكثر أشيائه نفعاً ــ ثم إذا استمريت بضعة أمتار أخرى في الدهليز وجدت بـابـاً آخـر، يوصلك إلى فسحة تربط من الداخل بين المقعد سابـق الـذكـر وبين الـديـوان الـذي يمثل غرفة المعيشة ، وغـرفـة الطبخ.. وأيضاً غرفة خزن المواد الغذائية.. ويمكنك أن تصعد إلى السطح الأول من تلك الفسحة فتجد نفسك فـي غرفة النوم.. الرئيسية في البيت ــ وهي غرفة غريبة الـشـكـل بمـقـايـيـس هـذه الأيـام لأنـهـا غـرفـة لاسقف لها ولاجـدران وكـل أثـاثـهـا ثـلاث «دكاك» عريانة نهاراً.. مفروشة ليلاً بتلك الفرش التي كنا نطويها صباحاً ونضعها فـي ركـن مـغـطى بمظلة من الصفيح.. لايضاف إلى ذلك سـوى أربعة مسامير مثبتة في أربعة أركان كانت تستعمل فـي ربـط حـبـال تلك الآلة التي انقرضت من الدنيا هذه الأيـام: «الـنـامـوسـيـة» والـتـي كـانـت تـقـينا أذى جيوش الـنـامـوس المـفـتـرس الـتـي كانت «تطن» طيلة الليل من حولنا.

هذا الجزء من المنزل كان هو الجزء المستعمل من قبلنا طيـلـة الـعـام تـقـريـبـاً حتى يفد الحجيج فيصبح جزءاً مما

يؤجر.. وننتقل إلى جزء آخر في ذلك البيت الفسيح. ولو سرت في الدهليز إياه ــ مترين آخرين فسترى ضوء الشمس لأن هذا الجزء غير مسقوف،وهو يقودك إلى بقية الدهليز وإلى حنيَّة الفحم ثم إلى ديوان آخر وفسحة صغيرة «وحنيَّة» ثانية لنا نربي بها الأرانب ــ وهذا الجزء كان يمثل مقامنا وقت الموسم عندما يؤجر المنزل.. أما الجزء الثالث والأخير فهو مجلس مرتفع يحتل الجزء الأخير من البيت نصعد إليه عندما نصل نهاية الدهليز الطويل ــ حيث تجد غرفة مضيئة لها،سطح مستقل و«مستراح» كانوا يسمونه «طهارة» وخلف ذلك المجلس برحة صغيرة إذا خرجت إليها عانقك جبل السبع بنات الشامخ بما تناثر فوق أكتافه من مساكن.

في تلك البرحة كنا نربي الدجاج وكنا نخوض معارك مع الثعلب «أبو الحصين» الذي كان يغزو قفص الدجاج ليلياً قادماً من الجبل ، حافراً حفرة صغيرة كافية لأن يدخل منها أحد مخلبيه ، حيث يبدأ في نهش أول دجاجة يرتطم بها ذراعه.. ولكم وجدنا بقايا دجاجة ملقية وسط الدجاج الآخر الذي يبدو أنه لم يعبأ بمعركة الليلة الماضية.. بالرغم من أن كل واحدة من أعضاء ذلك القفص كانت مرشحة لأن تكون هي الضحية في الليلة القادمة.

ولقد استغرق انتصارنا على ذلك «الماكر» بعض الوقت، ولكننا في النهاية قضينا على شره فانقطعت غزواته ــ نتيجة لخطة محكمة وضعت الوالدة خطوطها العامة ــ والتفصيلية أيضاً بعد أن باءت عدة خطط بالفشل.. وخلاصة هذه الخطة ــ لمن أراد الاستفادة منها في القضاء على ثعالب هذه الأيام ــ هي أن حفرت حوالي عشرين سنتمتراً وعمقها حوالي ثلاثين ثم ملأتها بالماء ووضعت فوقها غطاءً رقيقاً من «الابلكاش» ثم طبقة رقيقة من التراب، بحيث لايمكن التنبؤ بوجودها على الإطلاق.

كانت تلك الحفرة قريبة جداً من ذلك الجزء من القفص الذي تعود أن يرد من ناحيته.. وقد كان الهدف بطبيعة الحال أن يسقط اللعين في الحفرة إياها بمجرد أن يمر فوقها في طريقه إلى فريسته.. وقد حدث ذلك بالضبط ووجد المذكور صبيحة اليوم الثاني غارقاً في «شبر ماء».. فانقطعت شروره وتوقف التناقص التدريجي لعدد «دجاجاتنا» وديكهم «حَسَنُ الصّوْتِ».. وإن لم يكن ذلك التوقف نهائياً.. فلقد تناقصوا عدة مرات بشكل كان يهدد ثروتنا القومية ، وذلك حين انتشر وباء «الشوطة» بينهم، فقضى على أغلبهم كما يقضي الطاعون على الأحياء من بني البشر.. وقد كانت هناك وسائل للوقاية منه ــ

ووسائل أخرى لعلاج بعض ضحاياه.. من ذوي البنية السليمة، بخلاف الضعاف الذين كان يفتك بهم أول مايستشري على قاعدة الفناء للأضعف.

خلال تلك الفترة ــ فترة الشوطة ــ كنت تسمع الواحدة منهن تصرخ صرخة واحدة ممطوطة، ثم تسلم روحها إلى بارئها.. فيتم نقلها حالاً إلى الزقاق لتصبح طعمة لكلاب الحي وقططه.. وكانت هذه الموجة تستمر في الغالب بضعة عشر يوماً، وقبل أن تنتهي تكون قد قضت على أغلب مافي السرب.

لقد تعلمنا خلال تلك الأيام كيف نهيء مصادر تمويل جديدة، لرفع عدد السرب إلى ماكان عليه، وذلك بالتفقيص الطبيعي أو الصناعي، ويتم الأول حين تبدأ واحدة من تلك الدجاجات في «الرك» أي إبداء الرغبة في احتضان البيض.. عندها كنا نضع بين يديها مجموعة منه، ونترك لها أمرهم.. تدفئهم.. ثم تنقرهم حين يحين موعد التفقيص.. فتخرج إلى الوجود «فراريج» زاهية الألوان تمتع الناظرين.. أما التفقيص الصناعي فقد كان يتم بدفن أعداد من البيض إيّاه في «النخالة» التي لا إخال أحداً من الجيل الصاعد قد رآها أو سمع بها..

وكانت تتولى ــ أي النخالة ــ مهمة الدجاجة الركاكة.. حتى يتم التفقيص ويتنفس الجيل الجديد منهم أول أنفاسهم في الحياة.. وبعد بضعة أسابيع من ذلك التاريخ كانت تتم عملية الفرز ــ فرز الذكور من الإناث ــ فلا ينبغي أن يترك مع الجيل الجديد سوى ذكر واحد، أما الباقون فإلى زقاق «البيض» حيث يتم بيعهم أو إلى قدر الوالدة حيث يتم طبخهم الواحد بعد الآخر، طبعاً بعد أن يشتد ساعدهم قليلاً ويصبحو «برابر» بدلاً من فراريج.. وهؤلاء البرابر هم طبقة المراهقين من الديوك وشقاوتهم تشبه شقاوة المراهقين من بني الإنسان.. وقد كان التعرف على الذكور من الجيل الجديد يتم بعدة طرق أولها الأذان «الديكي».. فالذكور منهم يؤذنون كما يفعل الكبار،ولكن بصوت طفولي،يختلف عن صوت الكبار والمدربين منهم تدرباً حسناً.. ومن تلك الطرق أيضاً ظهور «العرف» على رأس المذكور بشكل يختلف عن الأخريات.. وثالثة تلك الطرق ــ أكثرها تعقيداً ــ أن يتم مسك «الفروج» أو الكتكوت من منقاره وترك بقية جسده يتدلى في الهواء،فإذا ماحرك جناحيه الصغيرين حركة قوية عصبية فهو ذكر.. وإلا فلا..

ولئن كانت دروس العلوم هذه الأيام تحصي فوائد الدجاج بأنه يعطينا اللحم والبيض والريش فإن دجاجنا

ذلك كان يعطينا بجانب ذلك «فطائر المطبق» وكيلات الدخن ، ولهذا فهو من الناحية الاقتصادية كان يمثل أحد مصادر الثروة الطبيعية لنا!!.. أما كيف كان يقدم لنا ذلك فالأمر في غاية البساطة.

كان عدد دجاجاتنا في الأغلب يتراوح حول الرقم عشرين زائداً الديك إياه.. ولما كانت الإحصاءات القديمة والحديثة تثبت أن متوسط ماتنتجه الدجاجة في العام يتراوح بين مائتين إلى ثلاثمائة بيضة، ولما كنا نحن شخصين اثنين فقط فقد تعذر التهام آلاف البيضات التي تمثل إنتاج العام.. وبذلك بدأت عملية المقايضة المستمرة بيننا من جهة وبين «بالَقَفْ» وعم الاسمُوني من جهة أخرى. إذ نتبادل مع الأول كل عشرين بيضة بكيلة من الدخن، ومع الثاني كل خمس عشرة بيضة بفطيرتين من المطبق، إحداهما حلوة والأخرى مالحة.. وكانت العملية الأخيرة تتم بمعدل مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين حسب توفر البيض الفائض، وحسب قوة اشتياقنا إلى فطائره المعروفة لدى كل من سكن شعب عامر.

عندما عدت إلى المنزل ذلك اليوم الذى أبلغت فيه بتعييني مدرساً، ((غطرفت)) الوالدة ((غطرفة)) عالية تشبه غطاريف الزواج ، وأسرعت إلى شربة الماء وملأت فاها ثم ((بَخَّتْهُ)) عليَّ، وتلك كانت العادة آنذاك إذا شئت أن لاتحسد إنساناً لهذا السبب أو ذلك. وبعد قليل أخبرتني بأنها ستحتفي بهذه المناسبة،وتعد لي وليمة صغيرة مناسبة، وطلبت إلي أن أذهب إلي بيت الخالة أسماء لأدعوها إلى الغداء،ثم إلى بيت سيدة أخرى لاأعرف اسمها،وإنما أعرف أنها من بيت التربي، ثم علي أن أذهب إلى المسجد لأصلي صلاة الظهر وركعتي شكر لله،ريثما تتولى هي إعداد الطعام..

لقد تغدينا يومها نحن الأربعة في الغرفة الرئيسية في البيت، والشيء الوحيد الذى كان غير متوقع هو أن سيدة بيت التربي تغدت معنا وهى ملثمة ــ لأنني أصبحت رجلاً ماشاء الله ، مما جعل الخالة أسماء تشتاط غيظاً لذلك وتصيح فيها: ماهذا الذي تصنعين..؟ إنه لايزال طفلاً ــ وهو أي أنا ــ أصغر من أصغر أبنائك.. ولكن

السيدة إياها أصرت على موقفها مما أدى إلى توتر الجو قليلاً.. وجعلني أحس بشيء من الحرج في صحبة النسوة الثلاث.

كانت الأيام الأولى بالنسبة إلي كمدرس أياماً عصيبة وشاقة بشكل لم أعهده، فمنظرى وأنا أسير كل صباح لابساً تلك العمامة والجبة منظر غريب، حتى علي أنا، وقد كنت أقف كل يوم عدة دقائق، محاولاً تثبيت العمامة إياها على هذا الجانب أو ذاك من رأسي، مستغرباً في الوقت نفسه من منظر ذلك الإنسان الذى كنت أراه أمامي كلما نظرت إلى المرآة.. ومع أن الوالدة كانت تصر على أنني أشبه الوالد في زيي الجديد، إلا أنني كنت متأكداً أنني لاأشبه نفسي أبداً، كما أنني كنت متأكداً أن ماأراه أمامي لايسرني ألبتة. علاوة على ذلك فإن الوقوف ــ وإن شئت الجلوس ــ أمام مجموعة الطلبة لم يكن يبعث على الارتياح أو الاسترخاء فلا زلت في أعماقي طالباً، وتفكيري لم يتحول فجأة من متلقي العلم إلى ناقله.. ومما زاد الأمور سوءاً أن المدير كان يصر على أن يحضر دروسي في الأيام الأول، ليتأكد من لياقتي لما اخترت له، وكان يجلس على الأرض في آخر الغرفة

مصغياً منتبهاً لكل كلمة أقولها.. محاولاً عدة مرات بسبابته أن يرشدني إلى خطأ وقع مني،أو لحن لم أتعمده.. والشيء الوحيد الذي أفادني من حضوره هو الهدوء الذى كان يعم غرفة الدرس خلال وجوده، فلم يحاول أحد أن يرفع صوته، أو يؤذي جاره، أو يفسد النظام الفصلي، ولقد كانت صورة سفيان الشقي تبرز أمامي طيلة ساعات الدرس،محاولاً معرفة من سيكون سفيان هذا الفصل متوقعاً بين لحظة أو أخرى بذرة من بذور «النبق» تنطلق في اتجاهي،أو اتجاه أحد الطلبة. ولكن وجود المدير كان ضماناً لعدم حدوث شيء من ذلك. على أن الجلوس في غرفة المدرسين لم يكن أدعى لهدوء نفسي من غرفة الفصل. فكل المدرسين كانوا أساتذة بالنسبة إلي ولم أتعود على أن أجلس معهم أو أتبادل معهم حديثاً ولهذا فقد كنت ألوذ بالصمت طيلة الوقت، وما إن تنطلق صفارة المراقب معلنة بدء الحصة التالية حتى أكون أول منطلق إلى غرفة التدريس ، ولهذا فقد كان يومي كله يوم انطلاق إما مسرعاً من غرفة الفصل ، وإما مسرعاً إليها.. أو مسرعاً إلى البيت حتى لايراني أحد وأنا في هذه الملابس الغريبة علي ، متوقعاً في كل لحظة لقاء أحد الأشقياء من زملائي القدماء في الحي،متأكداً أنني سأسمع قهقهة عالية لمنظري، أو سخرية مريرة من ذاتي.

وفي أحد الأيام دس أحدهم في جيب ثوبي ورقة مطوية بعناية،لم أعرف مابداخلها حتى عدت إلى البيت ففتحتها.. وهناك وجدت بها ماكنت أتوقعه، لقد كان بها بيت واحد من الشعر فقط لاغير.. وكان ذلك البيت هو:

إذا لبس العمامة صار قرداً وخنزيراً إذا ترك العمامة

لقد دخلت يومها «المستراح» في بيتنا وجعلت أبكي بحرقة،وبصوت مكتوم أول الأمر،ثم بصوت عال بنواح مستمر أذهل الوالدة،وجعلها تركض إلي محاولة معرفة ماذا جرى؟ولقد كان منظري غريباً حقاً،وأنا واقف في ذلك الركن الذى يجلس الناس فيه لقضاء حاجاتهم،وعلى كامل هيئتي وملابسي وأنا أجهش بالبكاء وهي تربت على كتفي بدون جدوى مما جعلها تنزع عمامتي أولاً ثم الجبة.. ثم قادتني إلى سطح البيت حتى أشم شيئاً من الهواء النقي ــ على حد تعبيرها ــ وخلال ذلك كله كانت تحوقل وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. وتسأل المرة تلو الأخرى عما جرى لي.. وأنا مستمر فيما أنا فيه.. حتى إذا انتهيت من عويلي وبكائي.. أحسست بالخجل من نفسي ومن أمي. ماذا أقول لها..؟ وكيف أشرح لها مأساتي وهي الفخور بي وبما أصبحته؟ولم ينقذني شيء

سوى الركض نحو الحرم ملاذي الأخير دائماً ــ حيث أخذت أطوف حول الكعبة ــ سَبْعاً بعد سبع ــ حتى لم أعد أدري كم سبعاً طفت، وقد أنهيت ذلك بشربة من زمزم دافئة ، أخذتها من دلو البئر مباشرة.. حتى أحسست أن أضلاعي تكاد تتفقص من الامتلاء، عندها فقط عادت السكينة إلى نفسي وعاد الهدوء يلفني.. فأسرعت نحو البيت محاولاً طمأنة الوالدة إلى أن كل شيء عاد إلى ماكان عليه.. ومحاولاً في الوقت نفسه التفكير بهدوء في ماحدث ومن الذي وضع تلك الورقة في جيبي ؟ وبعد استعادة للموقف في ذهني عدة مرات.. الخروج من الفصل في الحصة الأخيرة وذلك التزاحم عند الباب، ومنظر التلاميذ.. و.. وقفزت أمامي صورة أحد التلاميذ وهو يدافع الآخرين متجهاً نحوي.. نعم لابد أن يكون هو.. لقد أحسست به يقف بجانبي ثم أحسست باليد التي امتدت، فألقت مافيها وتخلت ، نعم هو.. ولاأحد غيره.. ولكن لماذا؟

واستعدت الشريط الطويل الذي مر بي في المدرسة خلال ستة أعوام، فتذكرت أنه كان أحدنا في العام الأول.. ثم تخلف وأعاد السنة في حين انطلقت أنا إلى السنة الثانية .. ولم أعد أراه.. حتى ظهر لي هكذا بدون

مقدمات.. في أي سنة دراسية هو ياترى الان؟ عليَّ أن أبحث عن ذلك.. ولكن حتى أجد الجواب على ذلك علي أن أقرر ماذا أنا صانع بالغد ؟ لابد أنني سألقاه مرة أخرى.. هل سأشكوه إلى المدير.. أم أدعوه إلى غرفة المدرسين،فأساله عما فعل وأؤنبه هل بامكاني أن أفعل ذلك؟ أكاد أن أرى نفسي وأنا أرتعد خوفاً منه.. وماذا عن بقية المدرسين.. سيعرفون الحقيقة وعلي أن أقرأ عليهم البيت إياه وربما «فرقع» أحدهم بالضحك أمام التلميذ،مما سيزيد من حرجي.. لا لن أفعل ذلك ، فما هكذا تورد الإبل-على،أن أعود إلى تلك الطريقة التي نمت أصولها في نفسي وهي طريقة الاستراتيجيات والخطط.. وأول مبدأ في الاستراتيجيات تعلمته خلال السنوات الطويلة التي قضيتها في الحياة محاولة إخفاء ماأنوي عمله بالفعل والتظاهر بعمل شيء آخر. وعلى هذا فقد قسرت نفسي على الابتسام ابتسامة دافئة جداً عندما لقيت الفتى إياه ثاني يوم خلال تلك الدقائق التي تفصل بين درس وآخر وكما يفعل ذوو الخبرة والتجربة مع صغار السن — مع أنه أضخم جثة وأكبر عمراً — ربت على كتفه ثم مددت يدي نحو أذنيه كما يفعل الآباء مع الأبناء الأشقياء وقلت: ألا زلت تمارس الشقاوة حتى الآن؟ ثم أضفت في تودد في أي سنة دراسية أنت الآن فأنا لم أرك منذ سنوات؟

فقال: في السنة الثانية عالي، قلت: إذن في السنة القادمة وبعد أن تنهي دراستك فسأوصي بتعيينك مدرساً، وسأضع حينئذ تلك الورقة في جيبك.. فنكس رأسه خجلاً.. فتركته، وسرت في طريقي..

لقد استنفذت تلك اللحظات كل قواي وعندما دخلت غرفة المدرسين كنت أحس كمن خاض معركة يدوية مع عملاق أو وحش..

انقطع المدير عن حضور الدروس التي كنت ألقيها على الطلبة، فبدأت الفوضى تدب في الفصل وعلا صياح التلاميذ وإيذاء بعضهم بعضاً.. وفي كل يوم كنت أواجه مشكلة من نوع جديد.. وكنت خلال ذلك كله أحاول أن أهتدي بنصائح المدير التي أسداها إلي يوم أبلغني باختياري لأن أكون مدرساً، وأحاول أن أصنف كل طالب وفقاً للتقسيم الذي سمعته منه «الطلبة على أنواع ثلاثة .. الخ ومما زاد في الموقف سوءاً علاقتي بالمدرسين إذ لم أستطع أن أندمج فيهم، وإن أتصرف كواحد منهم.. وبعد أيام أصبح الموقف لايطاق بالنسبة إلي، فدخلت على المدير ورجوته أن يوكل إلي أي عمل إداري بدلاً من التدريس، ولكنه رفض قائلاً: إن المدرسة ليست في حاجة إلى مزيد من الإداريين، ورجاني أن أشرح له متاعبي

لعله يستطيع أن يعينني على التغلب عليها فقلت له: المدرسون.. إنني لاأحس بأنني أحدهم، فقال: ذلك طبيعي في البداية، ثم أضاف: هناك اجتماع دوري من وقت لآخر يتم على غداء في بيت واحد منهم، ولسوف يدعونني الأسبوع القادم إلى منزله، وهناك أستطيع الاندماج معهم خارج الجو المدرسي.. وقد كان. فأثبت مرة أخرى أنه يتمتع بقدر كبير من الحنكة والخبرة.

ذلك اليوم اكتشفت الفرق بين أن تعرف إنساناً وهو مغطى الرأس وبين أن تعرفه وهو كاشف ذلك الرأس.. وبمرور السنين والحقب ثبتت تلك النظرية بطريقة عملية وأصبحت القاعدة عامة. لافرق بين أن يكون ماعلى الرأس عمة أو طربوشاً أو قبعة من قبعات «الخواجات». نعم، لقد ثبت ذلك بأكثر من دليل، فهؤلاء الأساتذة ورووسهم عارية غيرهم ورووسهم معممة.. لقد أخذوا يتبادلون النكات والقفشات، بل ومداعبة بعضهم بعضاً بحكايات ضاحكة حقيقية أو مختلقة، قصد بها الترويح عن نفوسهم حتى لاتكل قلوبهم فتعمى.. كما عميت قلوب آخرين من قبلهم ومن بعدهم، فلم يستطيعوا قط أن يسترخوا أو أن يبتسموا.

وعندما أحضر الطعام تبادلوا قذف عضو معين من «الخروف» لبعض عدة مرات، ثم انتهوا إلى دفن ذلك العضو تحت أكوام الأرز التي علاها الخروف بأعضائه.

الوحيد الذى لم يشارك في ذلك كله «مولانا» وهو أيضاً الوحيد الذى كان يلقب بذلك.. ومولانا هذا رجل طوال، كبير الجسم مهيب الطلعة بحق، لدرجة لا تكاد معها تنظر إليه.. ومع أنه لم يشارك في شيء من ذلك اللهو البريء، إلا أنه نزع عمامته كما فعل الآخرون، فبدا وجهه أقل صرامة وأكثر إنسانية.

نعم لقد استطعت يومها أن أشارك في شيء من ذلك المرح الذي غشي ذلك المجتمع المكي الصغير، ولم أتحرج من أن أقذف في وجه هذا أو ذاك بقصة طريفة أو حكاية تسخر من صنيع شبيه بصنيع له.. بل إنني يومها قطعت لسان الخروف إياه، ووضعت قطعة كبيرة منه أمام مولانا الذي نظر إليّ وابتسم، ثم التهم اللسان بدون أن يبدو عليه شيء من الضيق والتبرم.

ويبدو أن غطاء الرأس أو الملابس عموماً تحجب كثيراً من ذات الانسان بجانب حجب أعضائه.. كما أن نوعها وكمية «النشاء» الموضوع فيها.. كل ذلك يساهم

في أن يكشف أو يحجب من الإنسان ماينبغي كشفه أو حجبه.. ولعل ذلك هو السبب في أن الصينيين القدماء وهم مشهورون بالحكمة قالوا منذ آلاف السنين: «إذا أردت أن تعرف إنساناً فتحدث إليه وهو في منامته» أي «بيجامته» إذ أنه في تلك اللحظات أقرب مايكون إلى ذاته، بعيداً عن التصنع الذي قد يتلبسه بعد أن يضع كامل ثيابه وأبهته، و ينظر في المرآة فتعجبه نفسه، و بالتالي يتذكر مركزه الاجتماعي أو ماله.. فيتصرف على أساس هذين العاملين لاعلى أساس مايحسه هو..

ولقد خطا الأوربيون-وخاصة الشماليون منهم-بقاعدة المنامة إياها خطوة إلى الأمام أو إلى الخلف ــ إذ اكتشفوا أن أحسن الصلات وأفضل الصفقات تتم في غرف «السونا» حيث يتجرد الناس لا من طرابيشهم فقط بل من كل شيء سوى إزار صغير، يلفه المتقعرون منهم على خصورهم، أما غيرهم فيلفونها ببخار الماء المالىء تلك الغرفة.

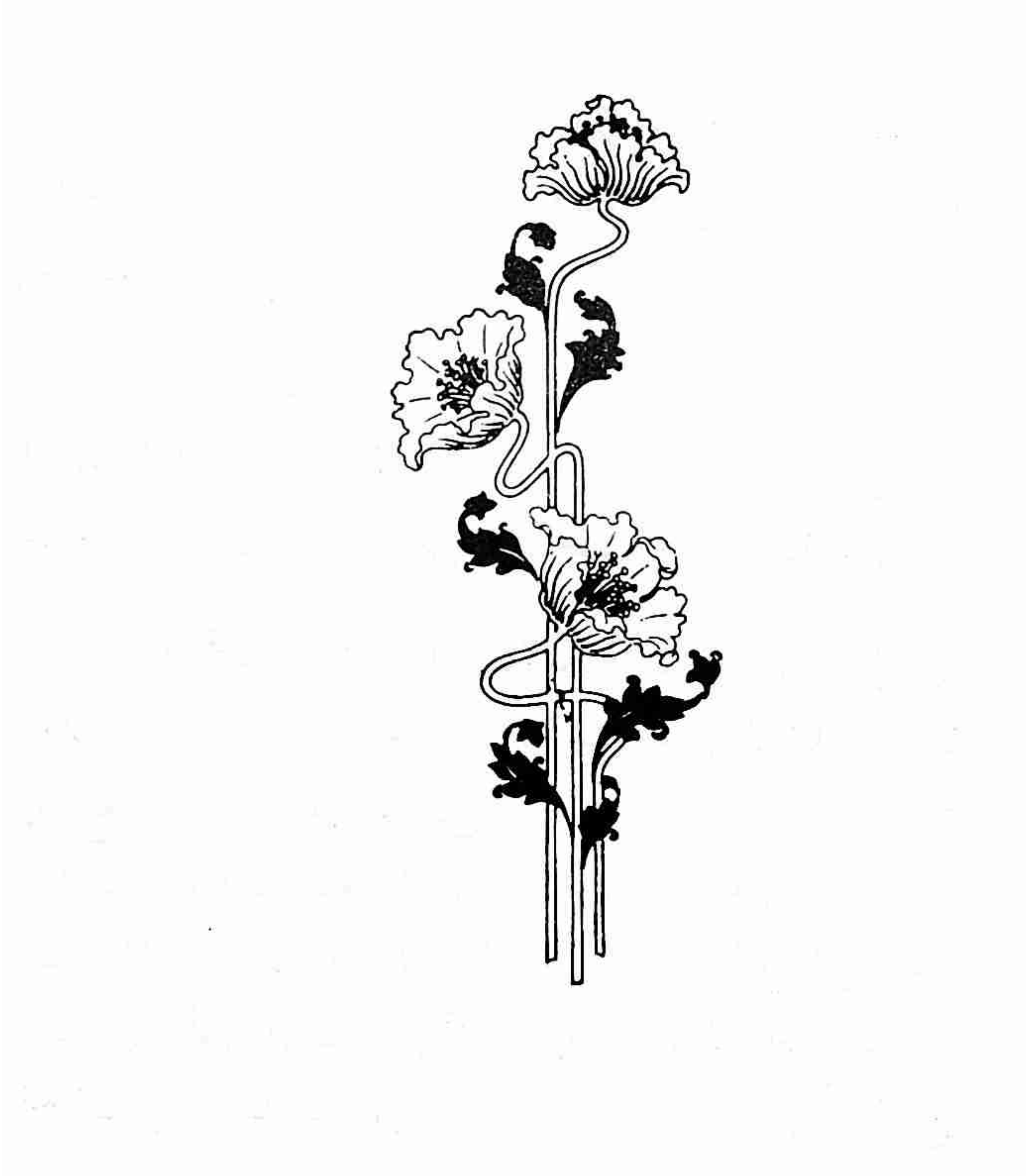
وعوداً على قضية الرأس وغطائه يذكر أن الناس كانوا يقولون إن فلاناً «كشف رأسه» و يقصدون أنه أظهر نواياه على حقيقتها، وفي الغالب مايقال ذلك ليبرهن على

أنه أسقط كل اعتبارات المجاملة أو التحفظ.. وكانوا يقولون عن المرأة التي أصبحت تظهر من رغباتها مايتوقع أن لاتظهره بأنها أسقطت «البرقع» إذ أن غطاء رأس السيدات أيامها كان برقعها لاعمامة.. واليوم ترى الأوربي يرفع قبعته عندما يحيي سيدة كدلالة على إظهار مافي نفسه من احترام، أو ماهو أكثر من الاحترام.. وعندما يزور إنسان آخر في منزله، فإنه ينزع قبعته أول مايدخل وكأنما هو يقول له هانذا على حقيقتي و بدون سجف أو براقع.

والعوام كانوا يقولون: «قطع الرؤوس ولا هد العمائم».. لماذا؟ لأن هدمها تعرية لصاحبها من هالة تحيط به، وإظهاره للبشر من بني جنسه على حقيقته..

ولقد تحمست لذلك الانقلاب الذي حصل في العلاقات بيني وبين زملائي المدرسين على أثر تلك الدعوة وقشع الرؤوس لدرجة أنني اقترحت على السيد المدير أن يكون يوم الجمعة القادم يوم دعوتي للزملاء.. فابتسم وقال: لا تستعجل ولا تَدْعُ أحداً حتى نأكل في بيوتهم جميعاً.. أول الأمر ثم يأتي دورك.. ولقد أطعته بطبيعة الحال ثم تأكدت من دقة حكمه.. بعد أن بدأ الجميع

يلحون عليّ في أن آخذ الجمعة القادمة أو التي تليها، فكنت أرد: «من قدّم السبت لقي الأحد».. وأغلبكم لم يقدم لاسبتاً ولا جمعة فبأي حق تطالبون؟!.



كان المرتب الجزل الذي أتقاضاه من المدرسة يشكل معضلة اقتصادية ضخمة بالنسبة إلي... إذ أنه قد سبب مايعرف بالفائض النقدي، أو اختلال ميزان المدفوعات بشكل كبير، مما استدعى التفكير المتواصل، والبحث في عدة احتمالات لإنفاقه أو جزء منه.. ولعل موجة التضخم التي سادت في مقبل الأيام كانت بسبب أمثالي من الذين تضاعفت دخولهم بشكل فجائي.. ومن الواضح لي آنذاك أنني بدأت أقلق كلما قبضت مرتبي آخر الشهر.. ماذا أصنع به..؟ أين أضعه؟ كيف أخفيه؟ و بطبيعة الحال كانت الوالدة هي الخبير الاقتصادي الذي تلجأ إليه الأسرة في مثل هذه الأمور، فكنت أضع الر يالات العشر في يدها ــ وأنا صامت ــ فكانت تقفل راحتها عليها بسرعة ثم تهرول إلى الغرفة النائية، فتضعها حيث ينبغي أن توضع.. كانت تفعل ذلك ولكنها في الوقت نفسه كانت تفكر في طر يقة ترفع بها مستوى المعيشة ببيتنا.. وكان أول ماصنعت هو أن أخذت تستفيد من خدمات بعض «الافر يقيات» اللائي كن يسرن في شوارع مكة صائحات: «نغسّل الصحون نكنّس الدرج» إذ عهدت إلى إحداهن بالقيام بذلك الدور يومياً أو أسبوعياً حسب الحاجة فَتَنظُفَ الدهليز نظافة واضحة، كما أصبح الجزء

العلوي من البيت «المجلس» دائماً مستعداً لقدوم الحجاج إليه، بخلاف ماكان عليه الأمر في السابق.. و بعد مدة من الزمن أضافت مهمة أخرى إلى هؤلاء العاملات النشيطات، فأوكلت إليهن غسل الملابس يوم كل ثلاثاء ــ وكان ذلك هو اليوم المختار لدى أهل مكة لغسل الملابس لأنه ــ حسب الروايات المتواترة لديهن هو اليوم الذي خلقت فيه الجبال ــ وكانت الطريقة التي اختارتها الوالدة في توجيه «الفقيهة» كما كانت كل افريقية تدعى ــ هي أن تعد الوالدة تنكة الغسيل بنفسها بأن تضع بها كمية كبيرة من الرماد ثم تملأ الفراغ الباقي بالماء ــ حيث ينقع قليلاً في الغسيل ــ إذ لم تكن مستحضرات الغسيل الكيماوية قد عرفت بعد، فكان الرماد يتولى إزالة البقع والأوساخ بطريقة فعّالة وعملية.. وكانت الفقيهة تتولى الغسلتين الأولين، وهما أشد مافي عملية الغسل، بخلاف الثالثة التي تركتها الوالدة لنفسها حيث تضيف هى النشاء ــ أو النيلة ــ حسب مايقتضيه المقام.

ولايظن أحد أن علاقة الأسرة «بالفقيهات» إياهن قد بدأت في تلك الفترة فقط، فالصحيح هو أن كل الأسر لها علاقة بهن موغلة في القدم لعلها تمتد إلى مئات

السنين.. وإلاّ فمن يدق لأهل مكة «قمح الشوربة» الذي يكون الطبق الرئيسي خلال شهر رمضان؟ نعم لقد كان ذلك يتم سنوياً وبالضبط خلال النصف الثاني من شهر شعبان، حيث ينطلقن ـ في شوارع مكة حاملات تلك المهاريس الخشبية التي يصل ارتفاع الواحدة منها إلى المتر، صائحات «ندق شوربة» فيتسابق سيدات الحي إلى دعوتهن، والتفاوض معهن على عملية الدق إياها.. كان ذلك كله يتم بانتظام، بالرغم من أن جهة ما كانت تشيع في تلك الأيام أنهن ـ أي الافريقيات ـ ينتمين إلى طبقة «النم نم» أي أكلة لحوم البشر.. تلك التهمة التي أثبتها الامبراطور «انكاسا» بعد عدة قرون بطريقة عملية يوم طبخ أحد وزرائه وتغدى به، قبل أن يتعشى ذلك الوزير بفخامة الامبراطور المحترم..

أصبحت الوالدة نتيجة للخدمات المشار إليها اعلاه ـ تستمتع بكمية وافرة من الوقت الإضافي الذي كان لابد من شغله بشيء ما.. وبذلك أصبحت تنكب على «منسجها» ساعات وساعات، محاولة تزيين محارمها هي ـ أو مناديلي أنا ـ أو سراويل كلينا كما كان يفعل الأكابر من أهل تلك الأيام. ولم يفتها أيضاً أن تبذل

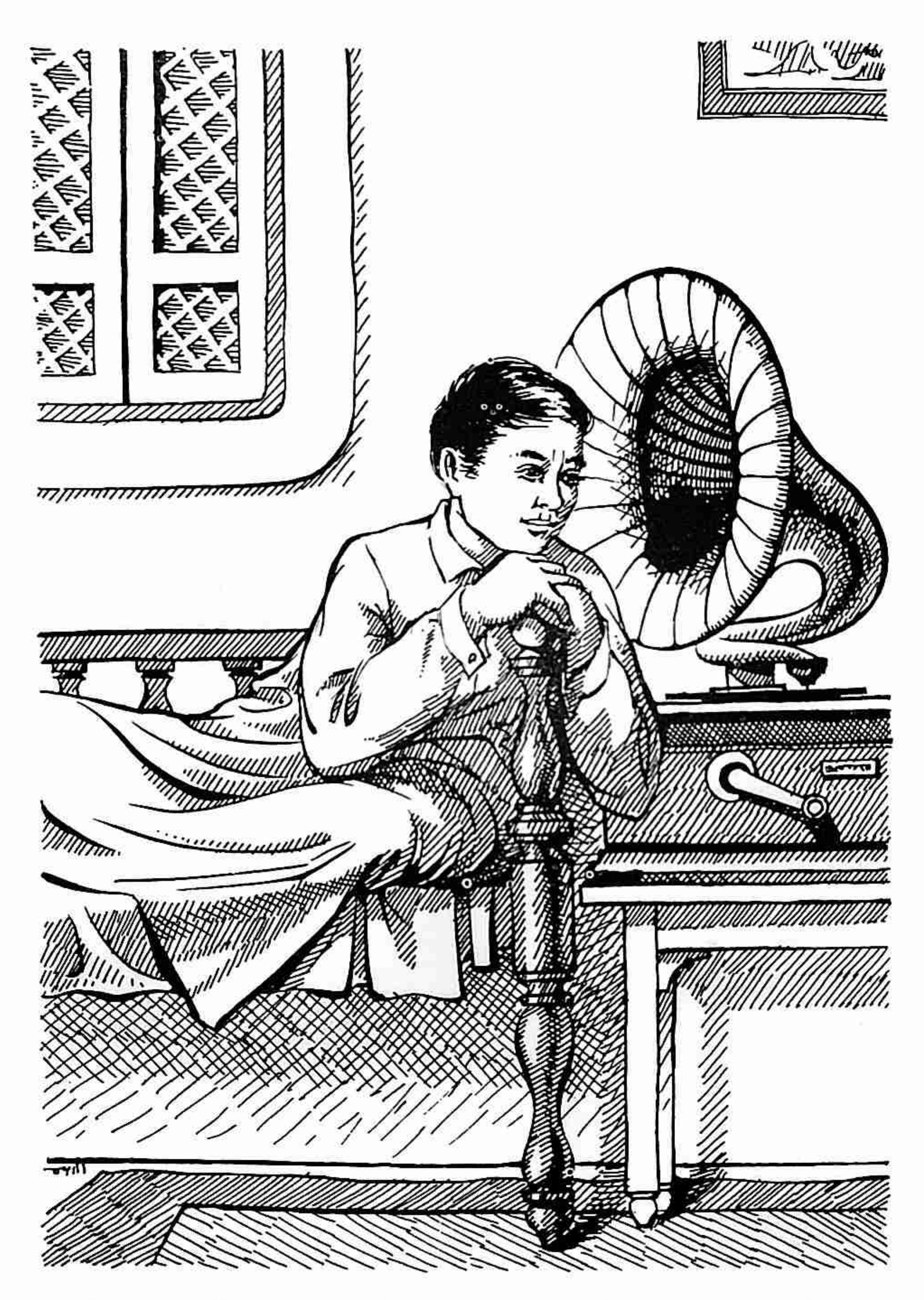
المزيد من الجهد في إعداد وجبات الطعام.. ذلك الجهد الذى تمثل ليس في إجادة ماتطبخ،بل وفي تنويعه والإكثار من كمياته ـ مما انعكس على شكلينا «أنا وهي» فامتلأت ملابسنا بنا بعد أن كانت فضفاضة..

وتعدى تدبيرها المنزلي كل ذلك فأخذت تضيف بعض الأدوات المنزلية والأواني والأثاث،كلما «أكلتها» يدها إيذاناً بضرورة إنفاق مافي الجيب حتى يأتيك مافي الغيب.

والآلة التي أدخلت كثيراً من السرور إلى نفسي لسنوات طويلة كانت آلة صنع «الآيس كريم» المنزلي.. وهي آلة مفيدة جداً،كانت تدار باليد بعد أن توضع كمية من قطع الثلج في الجزء الخارجي منها.. وكأس أو اثنين من عصير الليمون المحلى ـ في الجزء الداخلي.. وعندما يتجمد ذلك العصير أو يوشك يصبح الآيس كريم معداً للاستعمال والالتهام.

لاأذيع سراً أُسَرِياً حين أقول إن الوالدة كانت من النوع الطروب فقد كانت «تدندن» طيلة اليوم في صوت خفيض.. وكانت أغنيتها المفضلة تلك الأيام تلك الأغنية الشامية «هزة ياجُمَّيز هزة، تفاح الشام حلو وله لزه»

ولكن السر الذي لا أريد البوح به هو أنها اشترت يوماً من تلك الأيام الموغلة في القدم واحداً من تلك الصناديق التي عرفت آنذاك «بصناديق الغناء» أما كيف اشترته وممن؟فذلك سر لم تبح به أبداً لأحد. وقد وضعت ذلك الصندوق في الغرفة الخلفية وحشت جوانبه ببعض الخروق حتى لايرتفع صوته،فيعرف الجيران أن لدينا مالاينبغي اقتناؤه،وقد كانت تلك الحادثه أول دليل بالنسبة إليّ على أن تصرفات الآباء والأمهات ليست بالضرورة فوق الشبهات.. ومع أن الهدف الأسمى لديها كان إشاعة جو من المرح في المنزل،إلاّ أن الصندوق إياه أشاع جواً من التوتر لديّ لدرجة أنني كنت أسير أغلب الوقت متوجساً شراً،خوفاً من أن يعرف أحد في المدرسة بما حدث.. ولم يخفف من تلك البلوى إلاّ نصيحة الأستاذ إياه لي بأن لاأهتم بالأمر فليس في اقتناء ذلك الصندوق مايخدش الحياء، أو يعكر المزاج.. بدليل أنه هو يحتفظ في منزله بصندوق مشابه، ولايجد حرجاً في الأمر .. والأدهى من ذلك أنه عرض عليّ إعارتنا بعض الاسطوانات التي لديه للاستماع إليها،ومن ثم إعادتها بعد الفراغ من ذلك.. مما وضعه هو ــ ذلك الفرمسوني ــ على حد تعبيرها معها هي-تلك السيدة الحيي-في صف واحد.. عجبي!!



«ولكن السر الذي لاأريد البوح به هو أنها اشترت يوماً من تلك الأيام الموغلة في القدم واحداً من تلك الصناديق التي عرفت آنذاك «بصناديق الغناء»...

لم أنقطع عن إعطاء «جميل» دروس النحو التي كنت أعطيتها إياه، ولكنني أدخلت عليها بعض التغيير الذي جعلها أقل جفافاً مما كانت عليه.. لقد استأذنت الأستاذ بطبيعة الحال قائلاً: أعتقد أن علينا أن نحسن قدرة جميل على القراءة،وإلاّ فلا فائدة من معرفته القواعد لغة لايستطيع استعمالها،فوافق على ذلك.. عندها وجدت أن أحسن طريقة لتشجيعه على القراءة هي كتابة بعض الحكايات والقصص البسيطة له، مما اختزنته الذاكرة من أحاديث الوالدة وحكاياها على ظهر ذلك السطح إياه وبين جدران الناموسية حين يشتد عويل الناموس من حولنا.. وأظنني قد نقلت لجميل بهذه الطريقة مجمل إن لم يكن كل-التراث الشعبي الذي كان ينتقل من جيل إلى جيل- والفرق الوحيد الذي طرأ على الوضع في حالتنا هذه هي أنه نقل بواسطة ذكر لاأنثى كما جرت العادة.. وقد كان جميل لاينفك يبدي دهشته مرة بعد أخرى من حوادث تلك «الحواديث» بحيث يتدلى فكه الأسفل بشكل مقبض للنفس،يدنيه من طبقة البلهاء الكاملين بدلاً من البليهانية، وهم طبقة أقل بلاهة من سابقيهم..

والقصة التي كانت تثير خياله كثيراً وتجعل عينيه تتغامزان بسرور وحيوية هي قصة «غابة الأرانب» التي ألفتها ذات يوم له، وكتبتها في كراسته بعد أن نضب معين قصص الوالدة.. وهي حكاية ساذجة عن مجموعة من الأرانب كانت تعيش في غابة منعزلة في سلام ووئام إلى أن حلّ بينهم ذات يوم أرنب أغبر اللون ــ وربما أحمره ــ حيث أخذ «يحرش» فيما بينهم، ويثير مجموعة ضد أخرى حتى اقتتلوا، وجعل بعضهم يأكل بعضاً، حتى أكلوا أنفسهم جميعاً، ولم يبق منهم إلاّ واحد فقط.. وقد أصبح ضخم الجثة،بعد أن ساهم في أكل رفاقه، وأصبح شكله لايمت إلى الأرانب بصلة.. وأنهيت القصة بأن ذكرت أن جميع الثيران الموجودة على هذا الكوكب هم ذرية ذلك الأرنب إياه.. وهم لهذا يحبون أكل البرسيم كما كان يفعل أسلافهم.. من الأرانب.

ولقد أعجب جميل بالقصة إعجاباً فاق التصور لدرجة أنه ظل يقرؤها مرة بعد مرة، حتى حفظها عن ظهر قلب.. ولقد كنت أستفيد من حماسه لذلك «الثور الأرنب» فأسأله أن يعرب هذه الكلمة أو تلك أو يحدد هل الثور نكرة أم معرفة، وهل الأرنب مذكر أم مؤنث.؟ وأظنه قد تعلم من قواعد النحو تلك الأيام أكثر مما تعلم

طيلة المدة السابقة، إذ كان يتحمس للأرنب بشكل مذهل، ويحاول أن يعرب كل جملة يرد فيها لفظه.

والشيء الذي لم أحسب له حساباً هو أن جميل قد فاجأني ذات يوم بسؤال غريب، وهو إذا كانت الأرانب قد انقرضت خلال تلك المعركة فمن أين ترى أتت الأرانب التي نراها هذه الأيام..؟ وقد اقتضى ذلك التفكير بعض الوقت.. فالإجابة بأن هذه الأرانب هي من ذرية مجموعة من الثيران أصيبت بمجاعة وقلّة ذات اليد فضمرت أجسامها حتى صغرت إلى الحد الذي نراه.. وقد زاد إعجابه بالقصة على ضوء هذا التطور الأخير الذي أطلعته عليه..

وقد كان الأستاذ سعيداً للغاية بالتقدم المضطرد الذي كان يحرزه جميل، وكان لايفتأ يردد الشكر على ماصنعت لابنه.. ولكن سحابة من الحزن علت وجهه ذات يوم حينما قرأ له جميل حكاية الأرانب إياها.. وازدادت تلك السحابة قتاماً حين روى له شفهياً ماحدث للثيران الجائعة التي عادت أرانب.. كما كانت.. لقد كان واضحاً لديه أن جميلاً إنسان ليس سوياً، وإن جميع الجهود التي أبذلها، أو التي قد يبذلها أي معلم يؤتى به سوف

لا ترفع من مستوى ذكاء ذلك الإنسان البسيط، أو أن تجعل منه إنساناً سوياً كسائر مخلوقات الله.. ولكنه مع هذا كان يشجعني على الاستمرار، ويقول: لعله إذا استطاع ذات يوم أن يقرأ بعض مافي هذه المكتبة أن يتمكن من أن يعيش حياة شبه طبيعية، كما يعيش كثير من مخلوقات الله.

كنت ذات يوم خارجاً من غرفة الدرس وفي طريقي إلى الباب الخارجي، استوقفني الأستاذ، ثم طلب إليّ أن أجلس معه دقائق لشرب فنجان من الشاي ففعلت.. ولقد فاجأني يومها بأن أعطاني كتيباً صغيراً اسمه «تعبيرات شائعة في اللغة الانجليزية» فشكرته وهممت بالانصراف.. ونحن على عتبة الباب الخارجي قال لي: كنت أتمنى أن تكون جميلة ولداً.. كنت وكلت إليك تدريسها.. لكان ذلك مثمراً.. فهي ذكية جداً لدرجة تخال معها أنها استأثرت بنصيبها ونصيبه معاً.

شكرت له اهتمامه بمتاعبي في تدريس جميل وقلقه على كثرة الجهد الذي أبذله على قلة المردود ومضيت، ولم أفكر في تلك الجملة بعد ذلك فقد اعتبرت الأمر تعبيراً عن تقدير لي، ولايستدعي ذلك إطالة التفكير إذ أنني مستمتع إلى حد ما بما أعطيه لجميل من دروس..

لم تنته حكاية جميلة عند هذا الحد فلقد قال لي الأستاذ في مناسبة أخرى. من سوء الحظ أنه لا توجد مدارس للبنات وبذلك فقد حرمت جميلة من فرصة التعليم مع أنها جديرة به.. وسكت. فسألته لماذا لم يرسلها إلى كتاب «الكباريتي» للبنات، حيث بامكانها أن تقرأ على الأقل «جزء عم» وبذلك تستطيع أن تعرف شيئاً من القرآن الذى تستطيع أن تتلوه في صلاتها؟ فأفاد بأنه فعل ذلك، وقد حفظت أغلب مافي الجزء، ولكن ذلك ليس كافياً، فهي قادرة على أن تتعلم أكثر من ذلك.. وسكت.. ولم أدر ماذا أقول، فلذت بالصمت.. ولكنه عاد يقول: لولا التقاليد لطلبت إليك أن تعطيها درساً كما تفعل مع جميل، فسكت مرة أخرى.. فتركني وشأني.. فغادرت البيت.

وفي الطريق إلى بيتنا بدأت أفكر فيما قال.. وباستمرار التفكير.. طيلة الدقائق التي تفصل بيتنا عن بيتهم.. بدأت أحس أن «الفرمسوني» لابد أن يكون قد فكرّ في شيء أعمق من مجرد التمني بأن تكون لدينا مدارس للبنات.. وقد حدث ماتوقعت.. فبعد أيام عاد فسألني.. أليس تعلم العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟ قلت: بلى.. قال: فكيف السبيل إلى أداء هذه

الفريضة؟ فلم أحر جواباً.. عندها سألني بوضوح لم يترك لدي شكاً فيما قصد إليه: هل توافق على أن تدرسها.. كما تفعل مع جميل؟ قلت: ولكن.. قال: ستحضر هي وجدتها معاً، وجميل بطبيعة الحال بحيث يقتسمان الوقت فارتعدت من هول المفاجئة.. ولكن لم يدعني أعبر عمافي نفسي إذ أضاف: ستكون محجبة بطبيعة الحال، ولسوف تسمع خلال الحصص الأولى مايدور بينك وبين جميل بدون أن تشارك فيه ثم تبدأ.. بعد ذلك.. وبإمكانك استعمال نفس القصص والحكايات التي كتبتها لجميل حتى إذا أتقنت القراءة أمكنك أن تنتقل إلى كتاب القراءة الذي كنتم تدرسونه في المدرسة التحضيرية.. وتابع: إن من الإجحاف بحقها.. أن تترك جاهلة وهي قادرة على التعلم..

كانت جميلة أصغر مني سناً ومن أخيها جميل.. ربما بعامين أو ثلاثة.. ولم أكن قد رأيتها منذ سنوات وسنوات وعهدي بها وهي ابنة خمس أو ست سنوات، ثم تحجبت وانقطعت أخبارها عني.. بل ونسيت أنها موجودة قبل أن يبدأ هو الحديث عنها.

وعلى قاعدة لابد مما ليس منه بد حضرت جميلة أول يوم ومعها جدتها العجوز، مما سبب هياجاً شديداً

لأخيها ولي على حد سواء.. وقد كنت أتلفت حوالي خشية أن يرانا أحد ونحن على هذا الوضع.. وقد كان الزمام يفلت من يدي حين أخذ جميل يصيح: البنت.. البنت.. كيف يكون ذلك؟! هل تجلس معنا في مكان واحد؟! وجدته تستغفر الله بصوت مسموع، مما زاد الأمر إشكالاً، فقد بدا أنها غير موافقة على ماحدث، ولكنها فوضت أمرها إلى الله، ثم إلى أوامر «الفرمسوني».. الصارمة..

كانت جميلة كتلة مبهمة لايرى منها شيء بعد أن غطت بكاملها «بالجامة» ذلك اللباس النسوي الذي كان شائعاً تلك الأيام.. والذي كان لايظهر مابداخله.. والنافذة الوحيدة فيه التي يطل منها لابسه على العالم تلك الفتحتان الصغيرتان حول العينين.

كان جسمها صغيراً ودقيقاً بحيث يبدو الفرق بينه وبين جسمينا أنا وجميل هائلاً إلى حد كبير، وقد كانت تجلس أول الأمر في ركن وبجانبها الجدة المحترمة.. ثم لا تتحرك ولاحركة واحدة، حتى إذا انتهى الدرس غادرت وفي ذيلها جدتها تتبعها بدون سلام أو كلام.

وعندما حان الوقت لكي تشارك مشاركة عملية..

حضر الأستاد بنفسه وسعى خلفه «صبي البيت» يحمل صينية الشاي.. وطبقاً مليئاً بالحلوى من ذلك النوع الذي كانت ربات البيوت يصنعنه خصيصاً خلال موسم الحج.. ومع أنه لم يشارك في الدرس ولابكلمة واحدة إلا أن وجوده أضفى جواً من الثقة والسكينة على الحاضرين مما جعلني أصر على وجوده خلال ساعات الدرس المقبلة ومع أنه لم يفعل ذلك بطريقة منتظمة، إلا أنه كان يطل طلة أو اثنتين خلال الدرس،إذا ماقرر عدم البقاء معنا.. و يبدو أن الجدة قد اقتنعت بعد عدة دروس أن ما نقوم به وإن كان لم يسبقنا إليه أحد، إلا أنه لايمثل أي نوع من تجاوز الحدود على حد تعبيرها.. وقد انعكست آثار تلك القناعة على التحية التى بدأت تلقيها عليّ كلما قدمت للدرس.. فقد كان قدومها أول الأمر قدوماً صامتاً ثم أخذت تسلم: «السلام عليكم».. وبعد أسابيع: السلام عليكم ياابني.. وبعد أسابيع أخرى جعلت تبادلني بعض الكلمات وتسأل عن الوالدة.. وتبدي إعجابها بمنظري وأنا لابس جبتي وعمامتي، وتطور الأمر إلى الدعاء إلى الله بأن يقيني شر العين.. ثم تطور خطوة أخرى إلى الدعاء إلى الله بأن يجزيني خيراً على ماأقدمه من دروس لحفيدتها وحفيدها..

عندما وصل الأمر عند هذا الحد تأكدت أنني أصبحت محل الرضا.. رضا الأسرة بأكملها.. وأكبر دليل على ذلك أن زوجة الأستاذ نفسها شاركتنا مرة على الأقل ساعة الدرس واستمعت إلى ابنتها وهي تقرأ إحدى القصص التي سبق أن كتبتها لجميل.

وفي الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التطور النفسي لدى الجدة كان تطوران آخران يسيران جنبا إلى جنب أو ظهراً إلى ظهر.. فجميلة ـ كما أفاد الأستاذ ذكية بالفعل لدرجة لم أتوقعها.. وقد أخذت تلتهم تلك الحكايات الواحدة تلو الأخرى،وكانت بعد أن تقرأها مرة أو اثنتين معي تراجعها.. خلال ساعات النهار حتى تحفظها مشكلة من غير لحن ومن غير معرفة بقواعد اللغة.

أما التطور الثاني فقد حدث داخل ذاتي أنا إذ بدأت آنس إلى ذلك الصوت الخافت ذي الغنة الخفيفة.. آنس إليه لدرجة أنني كنت أفتقده بعض ساعات النهار،وأحاول استعادته وتذكره.. لم يكن هناك شيء آخر يمكن أن يذكر،فجميلة لا تزال كتلة غامضة لا أعرف ماهي؟ فيما عدا هذا الصوت الطفولي.. الذي أخذ يعلو تدريجياً بمرور الوقت وتوطد الثقة..

حتى تلك الأيام لم أكن قد قرأت ـ بعد ـ قصة «غرام العميان» التي تصف كيف يبدأ الأعمى في تنمية علاقة إنسانية أو عاطفية بينه وبين كائن آخر معتمداً على الصوت أول الأمر ثم اللمس.. لم أكن قرأتها بعد، ولكنني كنت أمارس ماورد فيها بطريقة آلية وطبيعية كما يفعل العميان تماماً.. فبعد الاستئناس بذلك الصوت أخذت أميل إليه.. ثم أتعلق به بدون أن أدري شيئاً عن صاحبه.. وفجأة رأيتني أعود إلى قراءة ديوان مجنون ليلى وأدندن.. كلما وجدت لحظة أنفرد فيها بنفسي: «فعيناك عيناها وجيدك جيدها».. بالرغم من أنني لم أر تلك العينين إلاّ بعد سنوات.. وسنوات.. وعجبت يومها كيف يألف المرء الأشياء والناس لا لشيء إلا للتكرار والعادة؟

ولقد تطور الأمر أكثر ـ نفسياً ـ فأخذت أرسم في ذهني صورة لتلك الكتلة الدقيقة الغامضة التي تجلس أمامي معتمداً على الأشكال الثلاثة التي أمامي ـ الجدة، الأستاذ، جميل، فأضع أنف هذه على جبهة ذاك، وقوام جميل بعد مسخه وتصغيره أضيفه إلى الصورة فيتكون أمامي ملامح لتلك الجالسة أمامي، المحتجبة عني..

كانت الجدة تساهم في تعميق علاقتي بالصوت إياه بشكل عملي.. فلكم شكوت من أنني لاأسمع القراءة.. فكانت تقول: «ارفعي صوتك ياجميلة حتى يسمعك محيسن» وفي مرة قالت: حتى يسمع المدرس، مضيفة: أنه ـ أي المدرس ـ مثل أخيك وفي سنه..

ومع أن عدة شهور مضت بدون أن يدور في تلك الغرفة أي حديث من أي نوع كان بين المدرس وتلميذته.. إلا أن التقدم المذهل الذي أحرزته جميلة، اقتضى بعد التشاور مع الأستاذ، أن نوسع دائرة معارف المعلومات المنقولة إليها.. فأضيف شيء من الحساب.. ثم النحو. وكل ذلك اقتضى تبادل بعض الكلمات ثم المناقشة والسؤال.. والإجابة.. على قاعدة «فسلام فكلام» بدون تخطي ذلك الحاجز أبداً.

لم يعد جميل يتبرم بوجود البنت معنا، أولاً لأن الضغط قد خف بالنسبة إليه بعد أن قسم الوقت بينهما.. وثانياً لأنه بدأ يستمتع بما يدور من نقاش وسؤال وجواب.. وبين الفينة والفينة كان يتطوع بالرد على سؤال لم يوجه إليه.. كما كان يتحمس للتنافس مع شقيقته مما حملني على اقتناص هذه الفرصة لتغذية خلايا دماغه التي بدا أنها نشطت على نحو ما.

انتقلت بلبس تلك العمامة والجبة من الطفولة والصبا إلى الكهولة والوقار، بدون أن يكون لي خيار في الأمر. تماماً كما انتقل أبطال «شتاين بك» في روايته «عن الناس والفيران» من البدائية إلى الانحلال بدون المرور بالحضارة وهي الدور الوسط بين الاثنين.

ومع أنني لم أكن أتمتع ــ قبل الزي إياه ــ بما يتمتع به فتيان تلك الأيام من لهو بريء وغير بريء.. بسبب الخوف من هذا أو ذاك.. وحتى لايقال.. ولايظن.. إلا أنني كنت ــ على الأقل ــ آخذ دور المتفرج على مايدور حولي.. وكم من مرة تسللت إلى «ضلع خندمة» ذلك الجبل الرابض في نهاية شارع «السد» والموجود دائماً هناك.. نعم كم تسللت إلى ذلك الضلع مشاهداً بعض مايدور بين فتيان الحي من لعب المزمار، أو مجرد «القشاع» بالعصي أو المبارزة أحياناً،أو القتال الذي كان كثيراً مايتطور و يصبح دامياً حقيقة لامجازاً. وكانت تلك المشاهد على الأقل تجعلني أحس أنني طرف في الحياة التي تدور حولي،بالرغم من عدم مشاركتي مشاركة فعلية فيها.

لقد حرمت من ذلك نهائياً.. إذ كيف يصح لطالب علم، أن يتفرج على هذا اللهو.. وتضييع الوقت، بالرغم من أن خلاياه الداخلية كانت خلايا طفل وفتى.. يود أن يستمتع وأن يشارك فيما يشارك فيه لذاته..

وقد شمل ذلك الحرمان أيضاً الامتناع عن مشاهدة المعارك الضارية التي كانت تنشب بين فتيان حينا.. وحي المسفلة الملاصق له،والتي كانت ساحتها منطقة المسيال مما يلي المارستان إياه، والذي يعرفه سائر أهل مكة، كما يعرفون مديره «السيد حسين».. ولمن لايعرف مكة وأحياءها وعلاقاتهم ببعض يستحسن أن يقال، إن أحياء مكة آنذاك لم تكن أحياء ذات علاقة ودية دائماً،بل العكس.. فحي الشامية كان حليف حي المسفلة، وحي أجياد كان حليف حي الشبيكة.. وهما عدوان لدودان لسابقيهما.. على نفس الطريقة التي كانت شائعة قبل ألفي عام.. بين بطون القبائل وأفخاذها.. ولكم تعذر على ساكني حينا عبور منطقة المسيال في الطريق إلى أسفل مكة،للاستمتاع ببساتين البرسيم التي كانت منتشرة هناك.. إذ أن الطريق كثيراً ماكانت تقطع عليهم من سكان المسفلة.. إلا أن يدعي مدع أنه ليس من حي

أجياد.. وذلك ماتأباه النخوة والكرامة.. وقد كان أهل حينا يردون الصاع صاعين.. فيمنعون كثيراً من فتيان حي المسفلة من العمل في حيهم.. وخاصة طبقة الحجارين الذين كانوا ينقلون الحجارة من جبل خندمة على ظهور بهائمهم إلى مناطق أخرى من المدينة.. وقد كان لهذه المعارك أصول وقواعد ــ واتيكيت ــ تبدأ بسؤال العابر عن حيه وهل هو صديق أم عدو..؟ ثم بسؤاله العودة من حيث أتى إن كان عدواً.. فإن امتنع فلا يلومن إلا نفسه ــ و يبدأ النزال ــ واحد لواحد ــ ونادراً مااجتمع أكثر من واحد على غريم.. تلك هي قواعد أهل الحارة.. وتلك هي أصول النزال.. و ينتهي النزال «بمردغة» أحد الخصمين في التراب، وشق ملابسه، وربما خدش رأسه بعصا أو مشعاب.. وإن كان النزال قد تم بين اثنين أو أكثر من جيل أكبر من جيلنا فربما انتهى الأمر «بشحطة» سكين تتدلى معها أمعاء هذا أو ذاك من الفرقاء.. وكثيراً ماكان يأخذ الأمر شكل غارة من الغارات المفاجئة،حيث يجتمع عدد من المغيرين.. و يقررون.. التحرش بالحي الآخر.. على طريقة «الجفلى» أي القتال الجماعي بدون تحديد.. وهذا النوع كثيراً ماانتهى.. بقتيل أو جريح أو كليهما.. ثم يصار إلى

كتمان الأمر عن أولي الأمر ـ ويدفن القتيل في صمت.. ثم توضع الخطط للانتقام من الحي القاتل.. حتى يتم الأخذ بالثأر.. ويوم بيوم.. والبادىء أظلم..

وأغرب قصة حدثت في ذلك العهد الذي لم يسمه أحد ـ بالعهد الزاهر ـ هي قصة التربص بأحد عتاة حي المعابدة، وقد كان لضخامة جثته وقوة عضله يسمى «بالثور» بدون أن يعرف أحد اسمه الحقيقي.. ويبدو أنه ـ الثور ـ قد فتك بعدد كبير من أبناء هذا الحي أو ذاك.. ضرباً وطعناً.. بل وقتلاً.. مما اقتضى الانتقام منه بطريقة جماعية.. فاتفق ثلاثة من أهل «شعب عامر» على البطش به.. مغرب يوم جمعة.. وبعد أن صلوا العصر.. معاً.. وتعاهدوا على أن لايتراجع أحد منهم.. ولا أن يشي بالآخرين أو يعترف بما حدث مهما كان الأمر.. بعد ذلك قرؤا الفاتحة على روح غريمهم «الثور».. باعتباره أصبح في عداد الموتى.. ثم امتطوا «بهائمهم» وتوجهوا إلى أعلى مكة في طريقهم إلى أول منى.. «مجر الكبش» حيث ربطوا حبال تلك البهائم ببعض الصخور الكبيرة.. المتواجدة هناك.. «ولبدوا» في أماكنهم.. حتى غربت الشمس وعاد الثور من نزهته اليومية.. وفجأة ظهروا له من بين تلك الصخور وفي أيديهم عصيهم..

وبدون.. مقدمات.. ضربه أحدهم على رأسه ضربة أخلت توازنه، فسقط من فوق ظهر حماره على الأرض.. وهناك علا صدره اثنان منهم.. وبقروا بطنه كما تبقر بطون المواشي.. حتى إذا تأكدوا من أنه لاحراك به.. مسحوا مديهم فوق ثوبه، ثم ركبوا بهائمهم، وعادوا إلى مكة.. «ولامن درى ولا من سمع».. وتخلصت مكة من عتي.. كان مضرب المثل في البطش والتجبر.. ولم يعلم أحد من الذي تخلص منه.. كما لم يدع أحد أنه الفاعل.. وقيدت الحادثة ضد مجهول.

ولئن حرمت من هذه أو تلك من متع الحياة إلا أنني كسبت متعاً أخرى، بعد أن انتقلت إلى طبقة أخرى من طبقات المجتمع.. فأصبحت توجه إليّ الدعوات إلى ولائم العرس التي تقام في الحي.. مما اقتضى المشاركة بإرسال كيس من السكر أو الأرز.. على شكل «رفد» وعلى قاعدة من قدم السبت لقي الأحد.. وتلك القاعدة حسنة جداً إذ أن أهل الحي كله كانوا غالباً مايدفعون كامل مصاريف الزفاف على طريقة الرفد إياها.. بل إن كثيراً من العرسان الجدد كانوا يعيشون مدة طويلة على ماتبقى من هدايا الزفاف.. وكلها «أرزاق» أي مواد تموينية

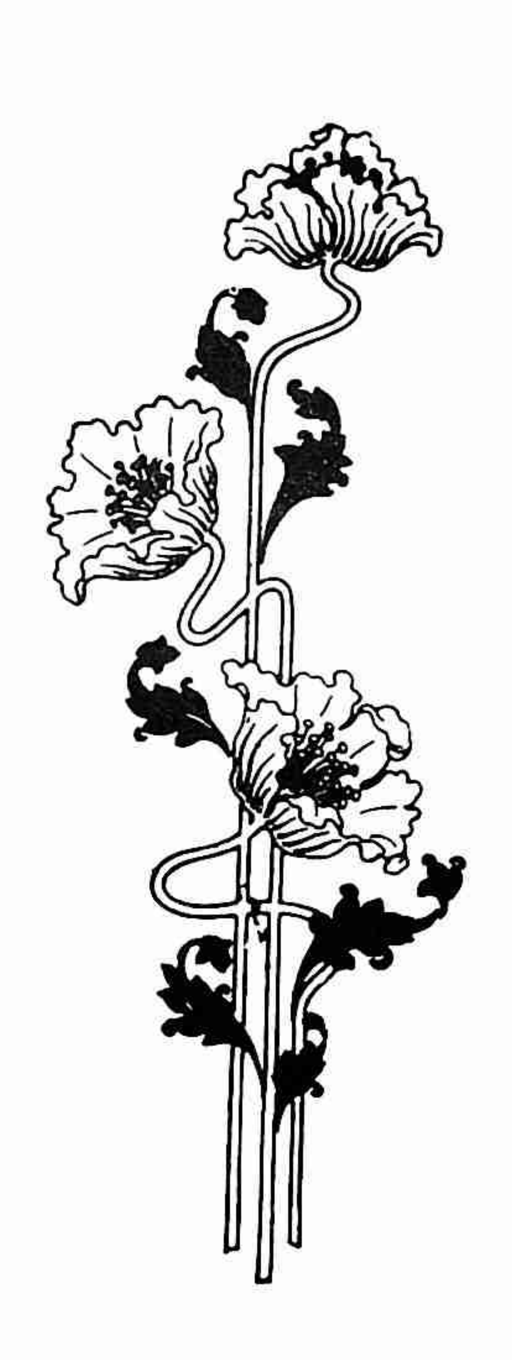
صلبة يمكن الاحتفاظ بها عاماً أو عامين، بدون أن يصيبها التلف.

وقد كانت العادة أن يرسل المعرس إلى كل من أهداه شيئاً بمناسبة زفافه «معشرة» بها شيء من طعام العرس وحلواه.. وكانت تلك المعشرة تمثل غذاء أهل بيت المهدي.. في ذلك اليوم.. والويل لأهل ذلك البيت إن تدخل شقي في خط سير حامل المعشرة وقاده إلى منزل غير المنزل المرسل إليه أصلاً.. وافترس ما لذ وطاب.. وترك أهل ذلك البيت يتضورون ويلعنون المعرس وأهله وذويه وقلة ذوقهم في عدم اتباع الأصول.

كما أصبحت عضواً في لجنة فض المنازعات في الحي وإصلاح ذات البين، وغياث ذوي الحاجة ممن هدم السيل دارهم.. أو التهم حريق بعض أثاثهم.. أو.. أو.. وقد كان يساعد على تمثيل ذلك الدور التضخم التدريجي الذي حدث لمظهري العام.. نتيجة لوفرة الطعام وقلة الحركة.

وعلى قاعدة الإيحاء النفسي التي أتقنتها خيل إلي أنني أصبحت إنساناً مهماً في الحي وفي الحياة ذاتها.. مما أثلج صدر الوالدة، لدرجة أنها كثيراً ما كانت

«تـغـطـرف».. عـنـدما تهل طلعتي بالبيت.. وتباشر عملية الدعاء «والتحصين» لعل الله يقيني شر الحسود وكل عين لا تصلي على النبي.



كانت صلاة الفجر في المسجد الحرام «أو الحرم» كما يسميه أهل مكة ـــ وخاصة صلاة «السجدة» ـــ فجر يوم الجمعة تمثل محفلاً روحياً هائلاً بالنسبة لي ولكثيرين ممن عاشوا تلك الفترة.. ربما كانت كذلك حتى اليوم بالنسبة لمن بقي من أهل مكة فيها.. وكانت قمة النشوة أن يتمكن إنسان من أن يصل إلى الحرم قبل الأذان بساعة، أو بعض ساعة فيضع.. «سجادة» صلاته في الصف الأول أمام الكعبة، ثم ينهمك في صلاة تهجد أو في طواف.. حتى يؤذن المؤذن.. وقد كان ذلك كله يتم بشكل طبيعي.. وبطريقة التوريث حيث يصحب الآباء أبناءهم إلى الحرم.. قبل أن يراهقوا،ومن ثم يتعود أولئك على ماتعود عليه آباؤهم، ثم يعوّدون عليه من يليهم من الخلف.. وهكذا.

في واحدة من تلك الروحات البكورية.. لمحت قبل الفجر «مولانا» تحت رواق من أروقة الحرم يصلي متهجداً.. بمفرده مطيلاً في قراءته،حتى ليخيل إليك أنه لن يركع أبداً.. فوقفت على بعد أنظر إليه.. حتى إذا انتهى من صلاته دنوت كمن فوجىء بمرآه،واضطر أن يسلم.. وبالفعل جلست وسلمت.. ثم انتقلت إلى المكان

الذي تعودت أن أصلي فيه.. ونسيت الأمر.. ولكنه. مولانا ــ لم ينسه على مايبدو. ومولانا لمن لم يزامله أو يدرس على يديه هو مدرس علوم «الأصول» في المدرسة.. أصول الفقه وأصول التفسير.. علاوة على أنه ضليع في أصول اللغة أي في علم «فقه اللغة».. و يعرف ــ للغرابة ــ شيئاً من اللغة السريانية.. وهو إنسان ورع ومستقيم.. و يقال إنه متصوف ــ بل إنه صاحب طريقة في التصوف، وله أتباع وخاصة في شمال افريقيا.. وأكثر من ذلك فإنه كما يروون عنه من أهل «الخطوات».. و.. و.. مما قد يستوجب ــ التحقيق معه لو عاش حتى هذه الأيام.. ولعله ــ إن كان حياً ــ قد جاوز المائة عام.. ولا أستبعد أن يكون حياً فقد كان ضخم الجثة قويها بشكل مذهل.

المهم أن مولانا ــ هذا ــ بعد لقاء الفجر المشار إليه.. دعاني إلى منزله للعشاء ذات يوم.. خارج نطاق الدعوات «الدورية» التي كان يحضرها أغلب المدرسين.. مما حيرني.. وقد كان عشاء صعباً للغاية.. فان تكون مع مولانا منفرداً أمر بالغ الصعوبة،لأنك تجد حرجاً في اختيار الأمور التي ينبغي لك أن تتحدث معه فيها.. وعليك أن

تنتظر حتى يتحدث هو. أو أن يمطرك بأسئلته.. و يبدو أنني اجتزت امتحان القبول لديه.. فكرر الدعوة مرة ثانية وثالثة بدون أن أعرف سبباً لذلك.. وفي المرة الرابعة قال لي إن هذا الطعام الذي نأكله من «طبخ» «أمينة» وشيئاً فشيئاً أخذ يحدثني عن أمينة وورعها وحفظها للقرآن، كما أخذ يصفها لي وصفاً حسياً.. وأنا أبتسم تلك الابتسامة البلهاء التي تعبر عن الحيرة.. والارتباك.. ومع الانتهاء من شرب فناجين الشاي الأخضر الذي قدمه لي.. عرفت أن أمينة هي ابنته.. وأنه يعرضها علي ــ زوجاً ــ بالرغم من أنه لم يقل ذلك صراحة ولكنه قاله ضمنياً أكثر من مرة.. لدرجة أنني خفت أن يطلب إلي أن أمد يدي ليقول لي: «أنكحتك وزوجتك ــ وقل قبلت».. كما كان يفعل الناس تلك الأيام.. ولكنه لم يفعل بل قال لي: المرة القادمة.. سترى أمينة. فالنظر إلى وجه المرأة مطلوب قبل الزواج.. بل ومأمور به.

لقد كان ذلك العرض أشبه بعملية جراحية.. تجري لانسان فاقد البصر.. حيث يتمكن بعدها من رؤية الأشياء والناس.. فحتى ذلك اليوم لم أفكر في أن أكون زوجاً.. أو في من يمكن أن تكون شريكة العمر.. والوالدة ــ رحمها الله ــ وهي القائد العام لكل أمورنا.. لم تلمح إلى ذلك ولم تشر إليه.

وفي الطريق إلى البيت.. أخذت صورة أمينة كما رسمها لي ــ تبرز إلى الوجود ــ وبجانبها ــ لسبب مجهول، صورة جميلة، الأولى فارعة ــ طوال ــ كما ذكر عنها، بيضاء ممتلئة، والثانية دقيقة.. أقرب إلى القصر.. ضامرة.. سمراء.. كما هي الحال مع أغلب بنات مكة تلك الأيام.. وبمرور الدقائق المتبقية على منزلنا أخذت الأمور تتبلور أمامي بوضوح.. وأخذ شبح أمينة يسير بجانبي في أزقة مكة المظلمة حتى لأكاد ألمسه بيدي.. ولم يكن ذلك الشبح باشاً أو ودوداً بل كان صارماً فيه من مولانا كثير من مهابته وطغيان شخصيته.. حتى إذا وصلت إلى البيت كان الخوف قد تملكني من أن يصبح ذلك الشبح حقيقة،علي أن أعاشرها طيلة الحياة.

لم يبد على الوالدة أنها فوجئت بما قلت ولم يبد عليها أنها فزعت من الشبح إياه،بل قالت: وأي شيء في ذلك.. بيضاء وطويلة.. وممتلئة الجسم.. ذلك مايتمناه أي رجل.. قلت:ولكنني لاأريدها.. قالت:أنت لم ترها بعد فكيف لك أن تقرر؟

ــ سواء أرأيتها أم لم أرها.. إن مجرد تصورها بجانبي يخيفني.

ـ لا ترفض «النعمة» التي ساقها الله إليك.
ـ أي نعمة هذه التي تتحدثين عنها.
ـ لا تكن طفلاً.. شيخ جليل مثل مولانا يعرض عليك ابنته وبدلاً من أن تسر لذلك ترتعد من الخوف.
ـ لقد عشت حتى الآن وحدي.. ومعك أنت فقط.. فكيف لي أن أعيش مع أمينة هذه.
ـ كل الرجال يقولون ذلك ولكن بعد أن «يلحسوا» قليلاً من العسل تفتح شهيتهم،و يطلبون المزيد.
ـ عسل أم غير عسل لايهم.. فأنا لم أفكر في الزواج حتى الآن وأنت لم تقترحي علي شيئاً كهذا قط.
ـ لم أقترح لأنني أخاف أن أفقدك، وأنا وحيدة في الدنيا،ولكن إذا جاء النصيب فلا مرد له.
ـ إذا جاء النصيب فأرجو أن يكون مع إنسان آخر غير أمينة.
ـ وهل تفكر في أنثى أخرى؟ قالت ذلك بدهشة.
ـ ربما.

واستمر حوار «الطرشان» بيني وبينها وامتد.. حتى أرهقني .. وقد كنت خلال ذلك أتبين مالم أتبينه في السابق.. إن كان ولابد من النصيب فلتكن «جميلة».. هي النصيب.. كانت تبدو أمامي وبجانبها الشيخ

الضخم.. فتهين نفسي لها وتنقبض لذلك العملاق الذي لم أره.

وفي النهاية حسمت الوالدة الأمر على النحو التالي.. الزواج قسمة ونصيب.. اذهب إلى مولانا ودعه يقدم لك أمينة.. ولاأحد يرغمك على الزواج إذا كنت لا تريدها.. صلِّ صلاة الاستخارة قبل أن تذهب، وادع الله أن يختار لك.. قلت: وإن مد يده لي وقال «زوجتك» ماذا أقول؟ قالت: قل له: لاداعي للعجلة يامولانا دعني أحدث أسرتي بذلك أولاً.. وعندما صليت صلاة الاستخارة خلف مقام إبراهيم لم أدع الله أن يختار لي، بل أن يصرف عني «أمينة».

مر العشاء ـ كالعادة ـ في بيت مولانا وهو دائماً عشاء دسم بخلاف العشاء في بيتنا الذي كان في الغالب ـ نواشف ـ ودار الحديث كما كان يدور دائماً بدون أن يشار من قريب أو بعيد إلي أمينة، أو إلى حديثنا السابق.. حتى إذا انتهت الوجبة وسحب صبي المنزل «المفتة» التي أكلنا عليها.. دخلت أمينة حاملة صينية الشاي.. بما عليها من كؤوس وأباريق.. يتبعها الصبي أياه وبين ذراعيه بقية أدوات الشاي «السامورا» والمنضدة الصغيرة التي توضع عليها الأواني.. والسلام

عليكم.. قالتها بصوت واضح ونبرة قوية لاخجل فيها ولااستحياء.. ثم جلست تصب الشاي في تلك الكؤوس الدقيقة.. حتى إذا انتهت من ذلك أعادت إبريق الشاي إلى مكانه فوق «الساموار» ثم وضعت اثنين من تلك الكؤوس فوق صينية صغيرة مفضضة،وانتصبت واقفة ثم اتجهت نحونا،حتى إذا وصلت قرب مولانا أحنت ظهرها.. ووضعت يدها اليسرى فوق صدرها ومدت اليمنى إليه: «وتفضل ياوالدي.. وتفضل ودنت مني» ثم عادت إلى مكانها في ركن الغرفة.. حيث بدأت تحتسي الشاي هي أيضاً.. بدون أن يبدو عليها أنها مهتمة بما يدور.. وقد كنت أختلس النظر إليها.. محاولاً ألاّ تراني.. ولكنني لاحظت مرة أو اثنتين أنها كانت هي أيضاً تحاول النظر إلي وتكوين فكرة عني. لم يكن الانطباع الذي تركته في نفسي سيئاً،فهي وإن كانت طويلة القامة مليئة الجسم إلا أنها كانت بشوشة الوجه لها عينان مرحتان.. وحركات طفولية.. رشيقة لا تكلف فيها..

استمر مولانا في حديثه الذي بدأه على العشاء وأخذ يروي القصة تلو القصة عن هذا وذاك من الصالحين وأهل الله.. ويقتبس قصة من هنا وقصة من هناك حول «المدد» الذي يأتي للصالحين وقت الشدة.. والصالحون

ليسوا فقط من أمة محمد، بل منهم ومن غيرهم ولديه حصيلة وافرة من قصص الأمم قبل البعثة وقصص عن قوم نوح أو قوم إبراهيم وموسى.. مرة واحدة رفع حاجبيه واتجه صوب أمينة يسألها عن كتاب لفلان «التنوخي».. لعله كان يريد أن يقول لي: إنها قارئة ومثقفة أو لعله بالفعل نسي اسم الكتاب، وأراد أن يستعين بذاكرتها الفتية.. لا يهم..

لقد طالت سهرتنا تلك الليلة أكثر مما كانت تطول عادة.. فلقد وجدت حرجاً شديداً في الاستئذان والانصراف ولهذا بقيت في مكاني جالساً على الأرض متربعاً مرة، ومقعياً مرة أخرى، وفي كل الحالات كنت أحاول فرقعة أصابعي لتخفيف الضغط الواقع علي.. لقد كنت أنا الإنسان الخجول في تلك الجلسة لاهي.. وكان يخيل إلي أنني أنا المعروض للموافقة عليه.. فقد كنت في غاية الارتباك، بينما كانت هي واثقة من نفسها هادئة مطمئنة.

وعندما انصرفت حاملة أباريقها.. وأدواتها استأذنت بدون أن أرفع عيني إليه.. ومضيت..

حاولت أن أرتب أفكاري قبل أن أصل البيت،و يبدأ طوفان الأسئلة التي كنت أتوقع أن الوالدة قد أعدتها لي.. وتمهلت أكثر من مرة في سيري ملتمساً أي عذر للوقوف هنا وهناك.. وسألت نفسي أكثر من مرة مارأيك يامحيسن؟ نعم.. أم لا.. وحين تعذر علي الرد أسرعت إلى البيت.. وكما توقعت.. كانت الوالدة واقفة على قدميها.. ولعلها كانت تذرع البيت جيئة وذهاباً.. حتى إذا رأتني لم تمهلني لألتقط أنفاسي،بل بادرت فرفعت رأسي كمن يريد أن يتفرس في وجهي ليرى الانطباع الذي تركته تلك المقابلة الحاسمة.. وقالت.. مابك..؟
لونك ممتقع هل حدث ماتكره..؟
ولم أرد .. فأعادت السؤال.. قلت انتظري قليلاً حتى أهدأ

ـ تهدأ من ماذا..؟ هل هي حلوة.. هل أعجبتك..؟
ـ لا أدري..
ـ لا تدري.. كيف..؟
ـ قلت لك لاأدري.
ـ غريب أمرك.. كيف لاتدري.. قل لي كيف وجدتها.. هل هي بيضاء وطويلة كما قال والدها..
ـ نعم هي بيضاء وطويلة.
ـ إذن لقد أعجبتك.

ـ أنا لم أقل ذلك.

ـ كيف لم تقل ذلك..؟ إذا كانت طويلة وبيضاء فلا بد أن تكون جميلة.

ـ ليست كل طويلة وبيضاء جميلة.

ـ إذن هي قبيحة هل في وجهها عيب ظاهر..؟

ـ لا:ليس فيها عيب ظاهر.

ـ غريب أمرك.

قلت: أيتها الوالدة.. صدقيني لاأعرف بالضبط بماذا أحس نحوها؟لعلي أريد أن أراها ثانية،حتى أحدد مشاعري.. ثم أضفت بدون وعي.. لعل الأمر ليس بالبساطة التي تتصورين.. لعلها هي التي ستقرر ليس أنا..

قالت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام.. الرجل هو الذي يقرر وليس المرأة.. وماذا عساها أن تقرر. أنت ليس بك عيب وأي فتاة تتمنى أن تكون لك زوجاً.

قلت: سنرى.. وتوجهت إلى السلم في محاولة لإنهاء ذلك الحوار. ومرت الأيام التي تفصل عادة بين كل دعوتي عشاء لدى مولانا وأنا حائر الفكر.. لاأدري ما الذي ينبغي علي عمله.. أحاول أن أتفرس في وجهه

لأرى إن كان به مابنم عن شيء وأسأل نفسي: متى ياترى سيسألني السؤال المتوقع.؟ هل علي أنا أن أبادره بالكلام، وماذا سأقول له إذا كنت لاأعلم ماالذي سأقوله وهل الإقدام على الزواج بمثل هذه الصعوبة؟ إذن فلماذا لاأنتظر حتى أتخذ القرار المطلوب اتخاذه بدون هذه المعاناة.؟ وحل موعد العشاء القادم وذكرني.. هو بأن لا أنسى. ولم أنس بطبيعة الحال.

كان يتفرس في وجهي بطريقة لم أعهدها من قبل وكان حديثه تلك الليلة منقطعاً بشكل غير مألوف.. لعله يتحين الفرصة ليمد إلي يده و يقول: هل تقبل أمينة زوجاً لك؟ فإذا قلت: نعم، أصبحت زوجاً لي في الحال.. بل ربما طلب إليّ أن آخذها إلى منزلي بعد أن أصبحت زوجاً لي.. وكدت أصرخ عندما تصورت كيف يمكن أن يفلت الأمر من يدي، وأتزوج شبه مكره.. ولكن لماذا لاأتزوج أمينة..؟ ما الذي يعيبها لقد «اشتراني» الرجل وفتح لي بيته ووهبني ابنته.. وبدون مقدمات سمعت صوته العميق يقول: يامحيسن ياابني لقد ورد في الأثر.. إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه وأنا ارتضيت دينك.. وسكت.ثم أضاف: الزواج أمر يقدره الله وليس البشر ونحن نريد، والله يفعل مايريد.. ولو كان الأمر لي

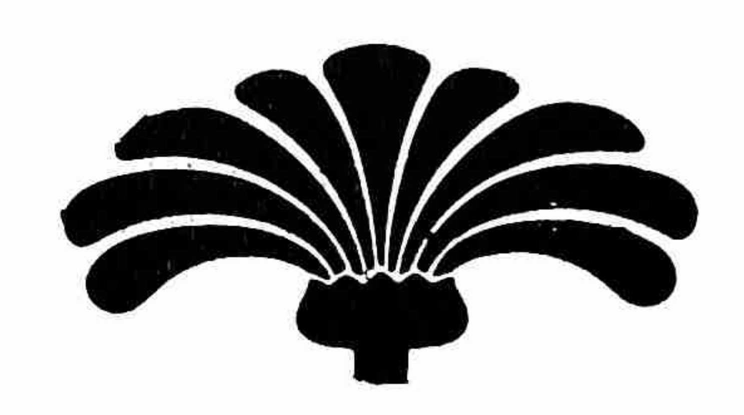
وحدي لقررت في الحال ولكن أمينة من حقها أن تختار أو على الأقل أن توافق على ماأختار.. وحتى الآن لم تعطني موافقتها. وسكت.. ثم لاحظ أنني أنظر إليه، ولكنني لاأراه. فقال: لا تَأْسَ، فلعل الله قد ادخر لك من هو خير منها ولعله ادخرها لغيرك لأمر يريده هو وتمثل بأبيات من الشعر، تقال عادة للتخفيف من هول الصدمات والمفاجآت.. وعندما استطعت أن أستعيد حواسي قلت: هل تعني أنها رفضت قبولي..؟ قال: هي لم توافق.

وفي الطريق إلى البيت تلكأت مرة أخرى محاولاً استيعاب ماحدث.. وتبينت خلال تلك الدقائق كم هو غريب هذا الكائن البشري.. الذي أمثله. لقد دعوت الله في حرقة أن يصرفها عني.. وعندما صرفها لم أشكره، بل أصبت بخيبة أمل.. فلماذا ياترى..؟ لعلي أحسست بالهوان والضعة عندما رفضت.. مع أنني كنت مستعداً لرفضها بدون أن أبالي بشعورها أو بإحساسها بالهوان وخيبة الأمل.

وكالعادة كان ـ المشير ـ الوالدة.. على الباب في انتظاري: هه.. هل اقترح موعداً لقراءة الفاتحة..؟ هل حدد موعداً للزفاف؟ أرجو أن لايكون في ذهنه أن تسكن معهم..!! فقلت ببساطة: اتفقنا على تأجيل الموضوع حتى

تكبر ابنته بعض الشيء.. لم أستطع أن أواجه حتى الوالدة بموقف أكون فيه المرفوض لا الرافض.. وللغرابة فقد قالت: ربما كان ذلك أفضل.. لماذا؟ لاأدري؟

وبعد بضعة أيام انتقل الموضوع كله من منطقة الوعي إلى منطقة أخرى.. بل لعله محي نهائياً.. لالشيء إلا لأن مولانا أثبت أنه إنسان حقيقة.. فلقد استمر في علاقته الخاصة معي وكأن شيئاً لم يكن.. دعوات العشاء.. والبشاشة المتحفظة.. والسؤال عن الأحوال والوالدة مما سرني كثيراً فنسيت أنني أهنت في داره وممن؟ من أقرب إنسانة إليه.



ليس في مكة من أهلها وأسرها من لم يحج ـ تلك الأيام ـ عاماً بعد عام، فكلهم على الأغلب ذو علاقة بالحج والحجيج.. مطوفين.. أو باعة.. أو حاجين لغرض الحج ذاته، وماكان أسهله في تلك الحقبة من الزمان.. ماعليك إلا أن تصلي هذا الفرض أو ذاك في الحرم ـ ثم تسير في اتجاه «المدعى» حيث تجد قافلة الجمالين والحمارين.. في انتظارك صائحين على بضاعتهم ـ أقصد جمالهم وحميرهم : ياروبكب.. وببضعة قروش تجد نفسك على ظهر أحدها ـ بمفردك ـ أو رديفاً إن شئت، في طريقك إلى عرفة إن تأخرت حتى التاسع.. أو إلى منى.. إن حججت حجة نبوية.. ولايكاد يبقى في مكة من ذكورها.. يوم التاسع سوى العسس ولصوص «الخليف» كما كانوا يسمونهم.. وهم ـ هؤلاء اللصوص ـ أقل شأناً على مايبدو،وأكثر استكانة من لصوص الحج.. الذين اعتادوا على التسلل إلى خيام الحجاج مساء يوم التروية بعد أن يأوي الجميع إلى خيامهم.. في الهزيع الأخير من ليلة الوقوف بعرفة.. حيث تسمع بين الفينة والفينة صيحة تنطلق من هنا أو من هناك: حرامي حرامي. ترى بعدها أشباح خدم المطوفين وفي

أيديهم المشاعل يركضون في هذا الاتجاه أو ذاك محاولين اللحاق بمن ظنوا أنه اتجه يميناً أو شمالاً بدون أن يعرف أحد على وجه التحديد من هو وإلى أين انطلق فالليل معتم.. والسيدة الجليلة الكهرباء.. لم يسمع بها أحد بعد والمشاعل.. والمسارج.. لا تكاد تضيء أكثر من ذواتها.

في هذه الليالي يلجأ «المخلفون» ــ بكسر اللام وتشديدها ــ وإن شئت المخلفات من الناس أي اللائي لم يحججن لهذا السبب أو ذاك إلى التجمع في هذه «البرحة» أو تلك من الحي وخاصة حي العتيبية للاحتفال «بالقيس» حتى وقت متأخر من الليل.. حيث لا ترى سوى حشود من نساء بدون رجال.. هاتفات مطربات:

قيسنا ياقيسنا   يالالامعانا بيتنا

نسقيك من شربيتنا   وارخو الستاير عليه

ومع أن الله صرف عنا هذه البدعة مع ماصرف من البدع التي كانت سارية على عهد جيلنا السابق.. إلا أن نساء أوائل القرن الماضي كن يحرصن على حضور ذلك المحفل.. ليشاركن في الأهازيج.. وليصرفن عن

أنفسهن وحشة «الخلّيف».. والبقاء في مكة بمفردهن.. ولقد قدر لي بطبيعة الحال أن اشهد أكثر من «قيس» وأنا طفل.. كما قدر لي أن أحمل معهن المشاعل سائراً أمامهن وهن يرقصن بسيوف خشبية كن يحملنها في أيديهن.. ومع أن الوالدة لم تكن تشارك مشاركة فعلية إلا أنها كانت تشاهد مايدور.. وفي يدها كيس مليء «بالنقل» لا تنفك تدس يدها فيه،وتستخرج من محتو ياته مايجعل فكها يدور في حلقات متتابعة من القضم.. والالتهام.. وكان ذلك المشهد هو أحد المشاهد المبهمة التي لازالت عالقة بالنفس بالرغم من مرور هذه الأحقاب الطو يلة على آخر ــ قيس ــ شهدته.. ولم يكن يخلو هذا التجمع النسوي من الحوادث أو من الحكايات والأساطير التي نسجت أو تنسج حوله.. وكلها تدور حول كيف أن النسوة اكتشفن متسللاً بينهن من الرجال.. لبس لبسهن وحمل سيفه،ثم انخرط بينهن ظاناً أن أمره لن يكشف.. على عكس ماحدث ويحدث دائماً من انكشاف أمره وأمر أشباهه حيث يلقون جزاءهم صفعاً وضرباً بالسيوف الخشبية..ومن ثم الافتضاح والخزي أمام الرجال من أهله وذو يه.. حين يعرف أمره بعد العيد مباشرة ومن ثم يستدعيه «العمدة» و يوسعه تو بيخاً.. واستهزاءً طالباً منه

في نهاية الأمر أن يقسم بالطلاق إن كان متزوجاً على ألا لايعود لمثلها أبداً.

ومع تقلد أعباء الوظيفة بل وربما قبل ذلك بعام أو عامين.. أصبح «القيس» خارج دائرة تطلعاتي وتجاربي.. وحلت محله رغبة أخرى في الالتصاق بالحج على نحو آخر.. وكان أحد الخيارات المتاحة لي ولأمثالي هو «التطويف» في الحرم كما كان يفعل عشرات الشبان ممن هم في مثل سني إما «صبياناً» للمطوفين،وإما أحراراً يتصيدون من لامطوف له من الأعراب،أو ممن يريد المزيد من «الطواف» خارج نطاق الوقت المخصص لذلك من مطوفيهم.. وقد كانت تلك مهنة متعارف عليها يزاولها الكثيرون،وبذلك يشاركون في «الموسم» و«يوسمون» بدورهم مما يساعدهم على العيش بقية أشهر العام التي كانت تسمى «بالبصارة» حتى المدرسون أنفسهم كانوا يشاركون في ذلك،ولكن بالعمل لدى هذا أو ذاك من المطوفين، فلقد تعارف الناس على اعتبار هذا الصنف أرفع درجة من أولئك المنطلقين على هواهم.. محاولين تصيد الحجاج والمعتمرين عند مداخل الحرم الكثيرة.

وبعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة استقر الرأي على شيء مختلف عن ذلك،وإن كان مرتبطاً بالحج

والموسم،ألا وهو العمل لدى أكبر مطوف في حينا ككاتب مهمته «مسك الدفاتر» وقيد الحجاج وأسمائهم و بواخرهم ثم الأمانات التي يتركونها.. وكذلك عدد حجج «البدل» التي معهم،وأسماء المطلوب الحج عنهم والمبالغ المخصصة لذلك وهل تحتوي على أضحية أم لا.؟ وكذا قيد المصاريف العامة ابتداءً باستئجار الدور «والشقادف» والخيام ومنازل منى وانتهاءً بالوجبات التي جرى التعارف على تقديمها للحجاج كاستضافة لهم ــ كوليمة ليلة الوصول من جدة،وولائم أيام وليالي الحج،وكذا وليمة الوداع بعد أن يؤدي كل «فوج» طواف الوداع استعداداً للعودة إلى ديارهم.. وقد كانت حجج «البدل» تمثل مورداً إضافياً للمطوفين.. وقد كان هذا المورد يضيق و يتسع وفقاً لاتساع ذمة المطوف وضيقها،فالأولون كانوا يأخذون تلك المبالغ و يضعونها في صناديقهم الحديدية،ثم لا ترى النور بعد ذلك.. والأخيرون كانوا يختارون بعض تلك الحجج ــ وخاصة ذات الأقيام العالية ــ و يبرون بها أنفسهم وذويهم والمهمين من العاملين لديهم،ثم يوزعون الباقي على الآخرين من صبيانهم وجيرانهم وأهل الحي.. وكانت بعض تلك الحجج تخرج بأقل من المبلغ المخصص لها مما يحقق بعض الربح لهؤلاء المطوفين،وكان ذلك يعتبر عملاً شرعياً لايستوجب الملامة مادام أن الحجة قد تمت بالفعل

باسم ذلك الحاج الذي لم يقدر له أن يحج ــ فقضى نحبه قبل أن يبلغ مناه ــ ومن ثم وجب على ورثته الحج عنه أو استئجار من يقوم بذلك نيابة عنهم.

بالطبع لم أقبل أن أحج حجة بدل عن أحد ذلك العام «فلا حج بدل لمن لم يؤد فريضته» كما قدر لي أن أقرأ في كتب الفقه، وإن كان هذا لم يمنع أن آخذ واحدة منهن باسم الوالدة التي تقرر أن تحج مع القافلة قافلة المطوف.. ولسذاجتي تلك الأيام أردت أن أبر «الأستاذ» بواحدة من تلك الحجج، فسعيت إليه عارضاً إحداها إن شاء.. فنظر إلي ملياً، ثم أشاح ببصره قائلاً في جفاء: أنا لاأحج عن أحد، ولست في حاجة لذلك.؟ كيف فات علي أن من يأخذ تلك الحجج هم مستورو الحال.؟ والبسطاء من خلق الله.. وليس المتفلسفين.. والموسرين؟

كان يوم الصعود إلى منى يوماً حافلاً بمعنى الكلمة.. والترتيبات التي أعدت له كانت أشبه ماتكون بالترتيبات التي تتخذ لتجهيز حملة عسكرية.. بكل التفاصيل والخطط التي تمثل حصيلة أكثر من ألف عام في هذه الشؤون.. وقد كان يتقدم القافلة جمالنا.. نحن «الأهالي» كما كنا نسمى.. «أسرة المطوف».. والتي كانت تمتطي أربعة جمال.. وأسرتي أنا.. والذي يميز «شقادف» الأهالي عن

شقادف الحجاج الاولى «حنابل» أو سجاني.. في حين أن الأخيرة كانت مغطاة بقماش أكياس الخيش كما يزين الأولى درابزين ـ زاهية الألوان بالإضافة إلى «تلكيك» أطرافها.. في الوقت الذي تركت فيه الأخيرة عارية الأخشاب لاجمال فيها ولاذوق.. حتى الجمال التي اختيرت للأهالي تبدو أضخم أجساماً.. وأشد وقاراً من تلك التي اختيرت للحجاج.

وعندما شدت «الشقادف» على جمالها وضعت تلك الأخيرة في طابور طويل ووزع الجمالون توزيعاً استراتيجياً حيث أخذ بخطام «القيدة» أي البعير الأول أكبر الجمالين سناً وأكثرهم خبرة، ثم وزع الباقون على جانبي القافلة كل بضعة جمال يسير بجانبها واحد منهم.. ومشى اثنان في الخلف.. ولما كانت تلك القافلة حجاج من مصر فقد انطلقت «زغاريدهم» أول ما تحرك «القيدة» ثم استمروا في غناء وحداء.. حتى تركنا مساكن مكة، واتجهنا شرقاً في الطريق إلى المشاعر.

والسبب العملي في توزيع الجمالين على القافلة بهذه الطريقة هو الخوف أن يتجرأ معتد حين يشتد الزحام على فصل جزء من القافلة عن بقيتها.. وذلك بفك الحبل الذي يربط أحد الجمال بما يسبقه، وبذلك ينقطع الجزء الذي

يليه من القافلة عن أولها.. وقد يضيع لساعات أو ربما لأيام بدون أن يعرف أحد عن مصيره شيئاً.. وكثيراً ماحدث ذلك.. إلا أن يلحظ ذلك خبير منطلق صائحاً: «قاطع» ياجمال.. قاطع. فيعود هذا لربط ماانفصل من قافلته لبقيتها.

لقد تسلحت يومها بما تسلح به بقية العاملين لدى «العم» المطوف. بـ«حسكل» بدوي يقوم مقام الشنط المترفهة التي يحملها رجال أعمال هذه الأيام «وكمر» حزمت به فوق الإزار.. ومشعاب معقوف الرأس وزعه علينا المطوف استعداداً للطوارىء ودفاعاً عن النفس إذا لزم الأمر..

ومع أنني سرت الجزء الأكبر من الطريق إلى منى فعرفة إلا أن نشوة كبيرة غمرتنى فأنستني متاعب السير الطويل الذي أصررت عليه بالرغم من صياح الوالدة بين الفينة والأخرى: «ياولد اطلع.. الشقدف..ارتاح» هل أنت جمّال؟.. صحيح أنا لست جمالاً ولكنني كنت مستمتعاً بالسير مع الجمالين والخدم.. وكنت أسأل الجمال الرئيسي عن عدد الحجج التي أدّاها والحوادث التي وقعت له، وقد كان ذا ذاكرة حية مليئة بقصص الأهوال التي كان عليه وعلى الحجاج تحملها سواء في

الحج أو في الزيارة.. وقد كان أغرب ماروواه لي هو كيف أن بعض الجمالين كانوا يتآمرون مع قاطعي الطرق على الحجاج.. بدلاً من الدفاع عنهم.. وكيف أنه فقد ابناً له في غارة من غارات قاطعي الطرق المذكورين.. حيث صمد الحجاج الزائرون بدلاً من أن يستسلموا فقاتلوا المغيرين في إحدى المحطات بطريق المدينة مستعملين العصي والأحجار وكل ماتقع عليه أيديهم فانهزم اللصوص بعد أن تركوا قتيلين كان أحدهم ابنه.. وبعدها تاب.. توبة نصوحاً وجعل يدافع عن قافلته ان لزم الأمر بدلاً من تسليمها لجياع البدو والقتلة منهم .. وقد كانت لديه قدرة فائقة على الكلام المستمر بدون انقطاع كما لو كان «شريطاً» معداً من قبل أو كأنما كان يقرأ في كتاب — وكانت حكاياته تتوالى الواحدة بعد الأخرى بدون انقطاع ولعله لم يلق أذناً صاغية مثل أذني — طيلة حياته — فانطلق يثرثر بدون أن يبدو عليه أنه تعب من كثرة الكلام،وكان بين الفينة والأخرى ينطلق سائراً إلى الخلف لتفقد جماله وأحمالها،وإصدار التعليمات إلى بقية الجمالين لملاحظة هذا البعير بالذات،لأنه أهوج والرفق بذاك لأنه عليل.. وفي كل مرة كان يعد الجمال عداً.. حتى إذا اطمأن إلى أن كل شيء كان يسير على مايرام عاد إلى أول القافلة واستأنف حديثه من حيث انتهى..

بادئاً كل مرة.. بالجملة إياها التي لم تتغير أبداً «وفي مرة كنا في زيارة.. وفي مرة كنا في الحج».. ثم يستطرد.. ويستطرد.. ولو كان لدي في تلك الأيام وسيلة لذلك.. لسجلت كل حكاياته ونشرتها على الملأ.. فهي مزيج عجيب من القصص المضحكة أو المفزعة وفيض من التجارب حول الجمال.. وأدوائها.. وعللها وأعمارها.. والمحطات التي فيها ماء على هذه الطريق.. أو تلك.. والمحطات التي ليس بها ماء.. وحوادث الموت عطشاً.. والقتال المستمر بين الصفراء والفريش على طريق المدينة وأشهر القبائل التي كانت تغير على القوافل وأشهر الجمالين على أيامه وأكثرهم شجاعة.

خلال هذه الحكايات كان ينطلق واحد أو أكثر من «شحاذي» الطريق وفي يده عصاً طويلة سمّر في نهايتها علبة فارغة من علب «الصلصلة» ثم رفعها أمام هذا الشقدف أو ذاك صائحاً: «ياحاجي قبول قبول».. وكانت القطع المعدنية ترن من وقت لآخر في تلك العلب المشرعة في الفضاء مما يحمل الشحاذ على الانتقال للجمل الثاني فالثالث.. وهكذا..

أصرت الوالدة يوم عيد الأضحى على أن تعاملني كما يعامل الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم البضع سنوات فأحضرت كيساً مليئاً «بالنقل» وجمعت عدداً من الأطفال الموجودين في المخيم ــ ثم نشرت ذلك علي وهي تصيح ضاحكة هازجة: «جوجو حج وجو» والأطفال يهبشون في تلك المكسرات الملقاة فوقي ومن حولي.. والمطوف وأسرته يتضاحكون و يصيحون لهذا المنظر الفر يد.. وانتهى كل ذلك بأن علقت حول عنقي حبل «قلادة».. والقلادة نوع من التمر الجاف.. يباع في موسم الحج للغرض المشار إليه أعلاه.. أو قبل عيد الفطر المبارك لعمل «الدبيازة» التي لاداعي لشرح كيفية عملها، فلا تزال أسر مكة و بعض من أسر جدة.. يتقنون صنعها.. بالرغم من الحملات التي شنت عليها من جيل هذه الأيام..

كانت ليالي منى ليالى مبهجة حقّاً.. والتنزه في «سوق العرب» ومشاهدة الرائحين والغادين والرائحات والغاديات «من اللائي لم يحججن يبغين حسبة».. يملأ النفس بنشوة لا تعد لها نشوة كما كانت الاحتفالات الليلية.. المتنوعة والتي كان بعضها يتمثل في الالتفاف حول مقرىء على دكة مطوف.. أو الالتفاف حول مجموعة من العربان يرقصون ويهزجون كأنهم في عرس.. كان كل ذلك جزءاً رئيسياً من مظاهر منى.

في حكايات الوالدة التي كانت تقصها علي وأنا طفل وقبل أن أصبح «شحطاً» بتعبير العوام.. في تلك الحكايات يولد البطل سواءً كان هو الشاطر «حسن» أو غيره في أول ليلة تبدأ فيها الحكاية.. وفي الليلة الثانية كان يلتقي «أميرته» أو فتاة أحلامه فيختطفها ويحملها على ظهر فرسه.. و يعيش معها.. على هذه الغيمة أو تلك.. و بين جدران هذا القصر المسحور أو ذاك.. وفي الليلة الثالثة كان يدهمهم هادم الملذات ومفرق الجماعات.. كان هذا هو التسلسل الطبيعي إلا أن يكون مزاجها معكراً.. فحينئذ يولد البطل.. و يتزوج.. أولا يتزوج ــ لايهم ــ ثم يموت.. كل ذلك في ليلة واحدة.. وقد كانت أمتع الليالي بالنسبة إليّ هي الليلة الثانية حيث المغامرات المذهلة والمعارك الكبرى التي يخوضها البطل في سبيل الوصول إلى فتاة أحلامه.. إن كان هو الساعي إليها.. أو المؤامرات واستعمال الساحرات والمشعوذات إن كانت الفتاة هي المغرمة والساعية إلى فتى الأحلام.. ولما كانت عملية الولادة.. والزواج.. ثم الوفاة تتم كلها في مدة لا تتجاوز الليالي الثلاث على أكبر تقدير ترسب في أعماق الناس أن «أولاد الحكايات»

يكبرون بسرعة.. ويموتون بسرعة أيضاً.. ولم يكن يخطر لي ببال أن في الحياة ذاتها.. تمر الأعوام والأحقاب.. كما تمر الليالي.. وفجأة يجد البطل ــ وكلنا بطل والحمد لله ــ يجد نفسه وقد وصل الليلة الثانية أو الثالثة في لمح البصر أو ما هو أسرع.. وإلا فكيف أفسّر اكتشافي فجأة.. أن مدير المدرسة قد هرم هكذا.. ثم تقاعد .. ثم جاءه هادم اللذات.. كما جاء لغيره.. وجلست أنا بالذات على قبره القنه: «إذا جاءك الملكان فقالا لك من ربك..الخ»؟ أو كيف أفسر أن هذه السنوات الطوال قد مرت على التحاقي بالمدرسة.. مدرساً.. فمراقباً.. فمعاوناً للمدير..؟ وكيف أن جميلة قد شبت أمام ناظري.. وأصبحت فتاة ناضجة مكتملة تفوح أنوثتها كلما سعت إلى الدرس الذي استمر.. واستطال.. حتى كدت أن أعجز في اختيار العلوم أو الكتب التي أدرسها لها.. وهي تلتهم كل ذلك في شراهة «الجراد» الذي كان يغير من وقت لآخر على بساتين الطائف.. فيحيلها إلى أعواد جافة..؟

كيف حدث كل ذلك وأنا غير ملتفت للسرعة الهائلة التي يسير بها الزمن.؟ لعلها ألغاز الوجود.. التي تقضي بإفناء كل من على هذه الأرض ــ خلال نصف قرن ــ

وذلك أعلى متوسط لأعمار البشر تلك الأيام.. وإحلال آخرين محلهم.. حتى يتجدد شباب الحياة.. وتستمر في دورانها العجيب..

عندما اكتشفت ذلك كنت قد جاوزت الثلاثين، على ما أظن، فلا يزال يوم مولدي سراً أو لغزاً لم يسجل في كتاب،ولم يذكره أحد على وجه التحقيق.. اكتشفته ونحن في الطائف بعد أن أصبح الصعود إليه جزءاً من برنامجنا السنوي كما كان يفعل سراة قريش وسكان مكة منذ أن كانت مكة.. ومنذ أن كان مصيفها العتيد..

عدت ليلتها إلى المنزل.. القابع فوق ذلك المرتفع الشهير بمرتفع «باب الريع» ولم ألحظ شيئاً غير عادي حتى إذا جاء موعد العشاء لم تجلس إليه الوالدة مشاركة لي كالعادة.. قائلة: إنها لا تشعر برغبة في الطعام تلك الليلة، فلما ألححت جلست.. وأخذت تأكل بدون شهية.. وبين اللقمة واللقمة كانت ترتشف رشفة من ماء.. حتى إذا انتهينا طوت «المفتّة» التي وضع عليها الطعام وذهبت بدون أن تقول شيئاً.. وبمرور الأيام قل تناولها للطعام أكثر فأكثر.. وازداد قلقي عليها.. فلم أكتشف بعد ما الذي حدث سوى أنها كانت لا تبلع لقمة إلا بجرعة ماء.. وهي لا تشكي ولكنها تذبل.. حتى إذا أوشك الصيف على

الانتهاء عدنا إلى مكة بدون أن ننتظر «الوردية» ذلك الفصل من العام الذي يأتي آخر الصيف وأول الخر يف فيصبح المصيف أجمل مايكون.. حيث تبدأ لسعة الهواء البارد تملأ الجو فتحمر معها وجوه المصطافين و يصيب بعضها الآخر «الحفوف» فتتقشر أطراف شفاههم وخدودهم إيذاناً.. بموعد الرحيل.. وترك المصيف لأهله ممن يتحملون برده.. وجفافه.. نعم لم ننتظر «الوردية» إياها كما لم نحمل «عدول» الرمان.. والعنب.. والسفرجل.. إلى الأهل والصحاب ممن لم يتمكن من «التصييف» مع السعداء والمحظوظين..

وفي مكة بدأنا ننظر إلى الأمر نظرة أخرى.. «الوالدة مر يضة».. وذلك حدث عجيب بالنسبة إلي.. فلم يسبق لها أن مرضت على هذا النحو. كانت «تزكّم» من وقت لآخر.. ولكنها كانت تعالج نفسها بهذا العشب أو ذاك من عشرات الأعشاب التي كانت تملأ شنطة صغيرة.. وكانت «تصدّع» ولكن زجاجة «النشادر» كانت حاضرة دائماً، وبعد شمة أو شمتين كان صداعها يزول.. كما كانت آلام البطن أو الجنب تتبخر بعد أن تدهن نفسها «بالكرباش» أو بعد أن تضع لبخة «التلبة» فوق الجنب المألوم.. كل ذلك كان يتم في آلية.. تامة

بدون أن يلفت الأنظار.. وكانت العصابة «حول رأسها.. عندما يصيبها الصداع أمراً مألوفاً، فكل نساء مكة كن يتعصبن من صداع بين الفينة والفينة.. أما الآن فالأمر مختلف.. فهي مريضة بطريقة مختلفة لم تعهدها.. وأنا لم يخطر ببالي قط أن يوماً كهذا سيظلني فما العمل.؟ لابد من استشارة الجارات أول الأمر، ومن بينهن زوجة العم عمر.. وتعددت الآراء.. ثم اختير من بينها ماظننت الوالدة أنه أصوبها.. فقد «أفتت» إحداهن أن صعوبة بلع الطعام ثم الألم الذي يعقبه بعد أن يصل إلى المعدة لابد أن يكون قد نشأ عن «عين» لا تصلى على النبي.. أي عين حاسد رآها تأكل فرماها بسهم حسده.. فوقفت تلك اللقمة المصابة في صدرها.. وأصبحت عائقاً يحول دون نزول الطعام.. والحل؟ الحل هو مراجعة فلان الماهر الموجود بالمعابدة والشهير بإخراج «اللُّقَم» المتوقفة في الصدور.. فليكن.. هكذا قلت.. وعلى ظهر عربة من ذاك النوع الذي يجره حصان انتقلنا عصراً أنا والوالدة والجارة إلى المعابدة.. هما بداخل العربة أو الصندوق الخشبي وأنا بجانب الحوذي «العربجي».. وبالفعل أخرج النطاسي الماهر.. اللقمة وأرانا قطعة قطن مبللة تفوح منها رائحة كريهة.. وقال: هي لقمة «معصوب» نظر إليها حاسد جائع فاشتهاها فوقفت في صدرها.. وحاولت أن أتذكر من

ياترى ذلك الحاسد الذي رآها تأكل المعصوب.. فأوقف بعينه تلك اللقمة في صدرها.. وبعد أن أعياني البحث والتنقيب قلت: ربما كان أحدهم رآني يوماً أشتري المعصوب من «برحة القزاز» فألقى بسهمه.. فأصاب ذاك الطعام الشهي وعندما أكلته الوالدة أصيبت.. ربما.. «ومن شر حاسد إذا حسد»..

ولكن الوالدة لم تشف بإخراج اللقمة.. صحيح أنا توهمنا ليوم أو يومين أنها بدأت تأكل وتبلع.. بدون أن تساعد عملية البلع بنفس الكمية من الماء.. لابد أن الماء قد قلّ.. وسيقل بالتدريج حتى تعود إلى طبيعتها.. ولكنها لم تعد.. فبدأنا البحث من جديد واستشارة العارفات.. فقدمت إلينا سلسلة اقتراحات وأسماء أعشاب تغلى.. أو «تسف» سفاً.. أو يصنع منها معجون بحجم كرة صغيرة عليها أن تبلعها برغم صعوبة ذلك لكبر الكرات.. إياها بالنسبة لضيق حلقها.. ولكنها كانت متجلدة صابرة فكانت تأخذ «السفوف» صباحاً وتبلع الكرات مساءً ومع أنها كادت تختنق أكثر من مرة إلا أنها استمرت في صبر وإصرار.. وأدت تلك الكرات مفعولها على نحو ما وبعد ثلاثة أسابيع، فانفرجت الأزمة قليلاً وأصبح تناول الطعام أسهل مما كان عليه.. لبعض

الوقت ثم عادت «ريمة لعادتها القديمة» وضاقت الحنجرة مرة أخرى وأصبح مرور الطعام شبه مستحيل.. مما جعلها تتحول عن الأكل كلية وأصبح زادها نوعاً من الشوربة أو «الحريرة».. وفي الصباح رشفات من حليب عنزنا «أم الخير».. وبعد مدة أعدنا البحث مرة أخرى عن علاج آخر فوصف لنا «المحو» الذي يعده السيد «فلان».. والمحو إن كنت لا تدري هو كتابة آيات من القرآن في صحاف من الخزف وعلى المريض أن يصب الماء أو الزمزم في تلك الصحاف،ويمحو الآيات التي كتبت بالحبر «الشيني»..ثم يشرب ذلك المنقوع وهو عادة سيء المذاق.. فيه حموضة غير مستساغة. لقد شربت عشرات من تلك الصحاف يوماً بعد يوم ولكن.. بدون جدوى.. ثم أفتى السيد بضرورة «حجبها» فضرب ستاراً أبيض حول أريكتها فلم يرها أحد لمدة سبعة أيام.. فلم يجد ذلك.. وأخيراً علقوا حول عنقها حجاباً.. وأحضروا «شنقيطياً» متمرساً،ليقرأ وفرقته سورة يس حولها عدة مرات ولبضعة أيام ..و...و.. وأنا مستسلم لا أكاد أسمع بوصفة إلا أتبعتها،منطقية كانت أم غير منطقية.. وكان بعض ماقبلت أن يصنع بها ــ رحمها الله ــ أو يعطى لها كعلاج مما يخجلني ذكره الآن ولكنني كنت مصمماً على شفائها بطريقة «عميانية» حتى إذا انسلخت عدة أشهر على هذه

الحال.. فكرت في إحضار طبيب من المستشفى الوحيد الذي أعرفه بمكة والذي كان يسمى «التكية».. و بعد أن فحصني الطبيب ملياً ليتأكد من أن معي «ر يالاً» كاملاً يمكنني دفعه له.. بعد أن يعاين المر يضة و يصف لها العلاج تبعني.. وأنا أحمل حقيبته الطبية وهو يسير خلفي بخطى سراع.. لم يستغرق الفحص أكثر من دقائق بسيطة أعلن بعدها أن الوالدة مصابة «بسرطان» الحنجرة وربما المريء أيضاً.. ولم أفهم شيئاً فتلك أول مرة أسمع فيها بأن هناك داءً !اسمه سرطان.. وما العمل ياحكيم..؟ هكذا قلت.. فأجاب أنه في مرحلة متقدمة وحالتها العامة سيئة جداً ومع ذلك إعطها هذا الدواء.. وكتب ورقة وسلمني إياها.. و بعد أن حُضِّر ذلك الشراب من صيدلية «التكية».. على عادة تلك الأيام.. عدت إليها وأنا حائر.. وأكثر تشاؤماً من ذي قبل، وأخذت تستعمل الدواء ولبضعة أيام و بدون جدوى فعدت إليه مرة أخرى، ولكنه رفض أن يصحبني قائلاً: لاأر يد أن آخذ نقودك بدون داع.. والدتك حالتها ميئوس منها.. وستقضي مابقي لها من أيام في هذه الدنيا ثم ترحل «وكلنا لها» فلا تأس.. وكن رجلاً.

كانت أسرة العم عمر خلال تلك المحنة هى أسرتي وكان طعامي، أو على الأقل الوجبة الرئيسية منه، وجبة الغداء، يأتي من دارهم يحمله صبي المنزل أو جميل نفسه في «مطبقية» متعددة الأدوار.. وكانت زوجة العم عمر تقضي الصباح كله.. أو أغلبه بمنزلنا في صحبة الوالدة حتى إذا دنا الظهر عادت إلى منزلها لإعداد الطعام تاركة جميلة.. خلفها حتى أعود من المدرسة فتنطلق هي إلى منزلهم.. ليعود حامل الغداء.. وهكذا..

لقد كان التصاقي بهم يزداد يوماً بعد يوم، وحدب العم عمر علي ونظراته المشفقة تملآني سكينة كلما زرته عصر كل يوم.. وقد كان كثير الحوقلة قليل الكلام كعادته.. ولكن صمته كان يزداد كلما علم بأنواع العلاج.. والشعوذة التي كنت أعرض الوالدة لها سعياً وراء العافية.. حتى إذا علم بقضية السرطان التي لم أع منها شيئاً زادت حوقلته وتجهم وجهه.. ولكنه بعد أيام ذكر لي أن هناك دواءً جديداً اكتشف خلال الحرب العالمية ــ وأظنها كانت الأولى آنذاك ــ وأن هذا الدواء اسمه «البنسلين» وهو دواء نادر، وتوجد كمية منه بسيطة لدى طبيب إحدى القنصليات بجدة، ولكنه نصراني لايستطيع أن يدخل مكة.. وهي لايمكن نقلها إلى جدة..

ولهذا فإنه سيحضر ذلك «البنسلين» و يعطيه لطبيب «التكية» ليحقنها به.. مرة كل بضع ساعات.. وأنه سيتولى كل ذلك إذا وافقت على الفكرة.. وافقت على الفكرة؟!! ظللت أردد.. بدون وعي وفي نفسي شيء يلوب، طبيب نصراني.. قنصلية.. وهذا البنسلين العجيب الذي اكتشف أثناء الحرب العالمية.. ولم لا؟ لقد جربنا كل شيء حتى الكي الذي أدمى جنبيها وصدرها.. فليكن..

وكما يفعل السحر.. فعل هذا البنسلين.. فتحسنت حالها بعد بضعة أيام.. وأخذت تجلس على الأر يكة لأول مرة وتتناول «حساءها» بيدها المرتعشة مما حملنى على الاعتقاد بأنها شفيت..ولكن هيهات، فبعد تلك الصحوة عادت فانتكست بطر يقة أشد عنفاً مما عهدت و بدا أنها أصبحت تتألم آلاماً مبرحة.. كانت تموء بسببها مواءً متواصلاً.. وماأظنها نامت لعدة ليال سوى لحظات وأنا بجانبها جالس القرفصاء.. أتصور أن يقظتي عامل مهم في بقائها على الحياة.

وفي صباح يوم.. أغمضت عينيها.. وأنا أنظر.. ثم لم تفتحهما أبداً..

جلست على ذلك القبر الندي بعد أن رحل المشيعون وأنا لاأكاد أصدق أن أغلى إنسان عندي.. يضطجع تحت هذه الصخور التي صفها «القبوري» فوق فتحة القبر.. لم أكن أفكر.. لم أكن أتألم.. لم أكن أع شيئاً مما يدور أو لايدور حولي.. حتى إذا استعدت حواسي تذكرت سورة «يس» فقرأتها مرة تلو مرة.. تلو مرة... حتى جف حلقي وأوغل الليل في ظلمته.. ونبهني حارس القبور إلى أن البقاء في القبور بعد هذا الوقت ممنوع.. فنهضت في اتجاه المدخل الرئيسي وأنا في شبه غيبوبة.. وبعد أن لفظتني المقابر خارجها وقفت أمام «قهوة السيد» حائراً أين أذهب.. وكما تضغط على زر حاسب آلي.. فتضيء أمامك على اللوحة عدة نقاط لمعت أمام ذهني عدة أماكن.. ذلك المقهى بمحبس الجن.. الحرم.. البيت.. المدرسة التي كنت أذهب إليها وأنا طفل.. ال.. ال.. وأماكن لاتحصى بعضها لايمكنني الذهاب إليه بطبيعة الحال،وبعضاً لم يعد له وجود.. وبعضها لم أره منذ سنوات وسنوات.. ولم يرقني شيء من ذلك فتركت لقدمي اتخاذ القرار الذي تراه مناسباً فقادتني في نفس الطريق الذي مررنا به ونحن نحمل «الفقيدة» مقراة

الفاتحة، المدعى، المسعى، ثم انحرفت بي إلى طلعة الصفا.. فسقيفة الصفا حيث يتجنب الناس عادة المرور منها بعد أن يظلم الليل.. ولكني لم أكن أحس بالليل ولابالظلمة فولجتها.. وحين فعلت ذلك أحسست إحساساً غريباً.. كما لو كنت ألج رحم أمي عائداً من حيث أتيت..!! كيف لإنسان أن يحس أحساساً كهذا وهو لم يجربه من قبل كما أن غيره لم يجربه أبداً..!! وحين بدا بصيص من نور منبعث من مصباح البلدية في نهاية السقيفة كدت أن أعود إليها.. ولكنني لم أفعل..

بدا أن شيئاً ماكان يلفت الأنظار إليّ.. فكلما أصبحت في مواجهة مصباح أو ضوء من أي نوع.. كنت ألاحظ أن الناس ينظرون إلي بطريقة موحدة بادئين بالحملقة في الجزء الأعلى من رأسي منتهين بقدمي.. لماذا ياترى؟ لابد أنني فقدت حذائي.. وعمامتي ولكن كيف يفقد إنسان حذاءه وهو ينتعله.؟ آه.. لابد أنني انسلخت منه ومن العمامة حين نزلت إلى تلك الحفرة المظلمة لأوسد ذلك الوجه العزيز على التراب.. لابد أن ذلك هو ماحدث.. ولابد أن أكثر من إنسان قابلته حاول أن يواسيني أو أن يشد على يدي أو أن يحتضنني معزياً.. لابد أن ذلك حدث،أو أنني حلمت به ذات ليلة بعد تلك

الليلة الليلاء.. فلا زلت أذكر بعض الكلمات التي قيلت وكيف يذكر الإنسان شيئاً لم يقل له..

وعندما وصلت إلى المنزل.. توجهت بطبيعة الحال إلى الأريكة.. ولم لا؟! ألا يطمئن المرء على والدته المريضة قبل أن ينام..؟ ولكن ماهذا الضوء الذي في أقصى الغرفة ومن هم أولاء الجلوس في ترقب.؟ آه..إنهم هم.. العم عمر وأسرته بكاملها.. وحين التفت إليهم التفاتة كاملة تقدم نحوي وأخذني بين ذراعيه وأخذ يجهش بالبكاء وبصوت عال.. لماذا ياترى..؟ وزوجه لقد أخذت تقبل رأسي ووجنتي.. غريب أمر هؤلاء القوم.. وتذكرت أنه قد قيل لي مرة إنه فرمسوني كما تواتر في الحي أنه جاسوس انجليزي، وبطريقة غريبة أحسست كأنهم كوّنوا حلقة حولي وأخذوا يدفعونني في رفق نحو الباب وإلى الشارع مرة أخرى.. لماذا ياترى..؟ وبدون أن يلفظوا كلمة وبدون أن أقول شيئاً كنت أسبح تلك المسافة بين البيت وبين مكان آخر.. أتراني كنت أسبح أم أن أحداً حملني.. كيف لي أن أعرف..؟!

(٣٢)

لأول مرة اكتشفت أن الانسان يستطيع أن يمسك فنجاناً من الشاي ويجلس في «روشان» وهو نائم.. هانذا أستيقظ لأجد نفسي على تلك الحال.. ترى هل كنت نائماً أم كنت فاقداً لقوة الإبصار ثم عادت إلي فجأة.. ومع تلك اليقظة المفاجأة.. فوجئت أنا نفسي بصوت يلعلع في صياح حاد: «آه ياأمي».. لقد اهتز العم عمر اهتزازاً شديداً من هول تلك الصيحة وأسرعت زوجه تشدني إلى صدرها وتربت عليّ وهي تبسمل وتحوقل.. وأنا أصيح لسبب مجهول بتلك الطريقة.. وبعد ثوان سمعته يقول: «لقد بدأ يستعيد ذاكرته: دعيه يبكي ويصرخ.. لقد بدأ الإحساس يعود إلى وعيه بعد أن كان عقله يرفض ماحدث.. إنه في الطريق إلى الشفاء..

من هو ذلك الذي في الطريق إلى الشفاء..؟!!

وفي يقظة أخرى قال لي ـ: أم تراه يكذب؟ لقد كان انهيارك كاملاً وقد مرّ عليك الآن أسبوعان وأنت على هذا الحال.. ولكن الحمد لله.

(٣٣)

لم أعد إلى البيت ولم أر تلك الأريكة مرة أخرى ولاأعرف ما الذي حل بذلك المصباح المشرع في ركن الغرفة؟ ولامن الذي يحلب أم الخير..؟ وهل لازالت تلك الأرانب في جحورها حيث كانت..؟ ولكن شيئاً واحداً بدأ مؤكداً وهو أن شخصاً ماأحضر ملابسى إلى بيت العم عمر حيث أقيم الآن بدليل أنني لازلت ألبس نفس الملابس التي كنت ألبسها سابقاً.

ومع أنني لم أعد إلى البيت إلا أنني عدت إلى المدرسة، لقد أقنعني هو بذلك: «لايمكنك أن تغيب أكثر مما غبت، لقد سأل عليك المدير أكثر من مرة، وقدم كل الأساتذة لزيارتك، ولكنني كنت أرفض أن أدعهم يقابلونك حتى تسترد عافيتك، وتعود إليهم بنفسك.. أنت في حاجة إلى الخروج من بين هذه الجدران الأربعة ورؤية الناس».. وتحت وطأة ذلك الإلحاح عدت واستمتعت بالعودة إلى حد كبير بالرغم من أنني كنت أسير بين جنبات المدرسة وأنا شبه نائم، ولو طلب إلي أن أكتب يومها موضوعاً في وصف شعوري لقدمت ورقة الإجابة بيضاء.. ومع ذلك كنت أدرس وأناقش الطلبة

وأصحح كراساتهم، ولكن مايكاد ذلك ينتهي حتى أدخل في حجر نفسي الحصين وألوذ بالصمت.. ولم يضايقني أحد بالتطفل على مايدور بداخلي،فكنت أؤدي واجبي وأنصرف..

لقد قضيت مدة طويلة ــ هكذا بدا لي ــ في بيت العم عمر مع أنني حتى الآن لاأذكر أنني ذهبت إليه ليلة لفظتني المقابر، ولكن وجودي المستمر بين جدران الغرفة التي خصصت لي بجانب المكتبة يثبت بشكل قاطع أنني هنا.. وجلسة العصر اليومية خلف الروشان، واحتساء أقداح الشاي، كل ذلك يؤكد أنني جئت إلى هذا المنزل بطريقة أو بأخرى لأعيش مع أهله.. ولم أسأل نفسي إلى متى سأظل هنا..؟! وهل أثقل وجودي على أهل الدار وكيف باستطاعتي أن أنسلخ منهم.. وإذا ما انسلخت فإلى أين أذهب؟ لم أسال عن شيء من ذلك ولم يشر إليه أحد.. لقد كان وجودي هناك أكثر الأشياء طبيعية.. ــ هكذا بدا لي ــ ولم يبد أحد على حد علمي أي اعتراض على ذلك.. بل لقد كنت محتفى به طيلة الوقت،ومع هذا فقد كان في الأمر شيء من الغرابة، وحديثي معهم ومع العم عمر حين نلتقي كان على قاعدة «كلمة ورد غطاها» لاهو يكثر ولاأنا أزيد.. حتى كان

عصر يوم.. لابد أنه كان بعد بضعة أشهر.. وكنت أجلس جلسة العصر معه حين بدا وكأنه متحفز ليقول شيئاً غير عادي.. وبعد تردد قال: يامحيسن يبدو لي أنك في حاجة إلى من يؤنسك ويصرف هذه الوحشة عن نفسك.؟ وسكت.. وبعد فترة أضاف: لاشيء يخفف من الوحدة النفسية كالزوجة الصالحة التى يستطيع الإنسان أن يسكن إليها.. وسكت أيضاً.. كما بدا أنه يبذل جهداً ضخماً ليقول مايريد أن يقوله.. ثم عدّل طريقته في الحديث فجأة وسأل:

ـ ألم تفكر يوماً في الزواج؟

ـ حدث ذات مرة

ـ إذن فأنت لست ضد فكرة الزواج ذاتها

ـ ليس بيني وبينها عداوة

ـ إذن فأنا أعرض عليك ابنتي «جميلة» زوجاً.. فهل تقبلها..؟

لقد بدا وكأنما تنفس لأول مرة بعد أن ألقى عن كاهله عبئاً كان ينوءبه.. أما أنا فقد بدت تلك اللوحة التي رأيتها أول ما رأيت ليلة «الدفنة» تبرز أمامي، النقاط المضيئة والمتراقصة فيها.. وتلك الأخرى المعتمة، وظللت أحملق فيها.. وهي مليئة بكلمات وأماكن وأسماء

لاترابط بينها. وحين طال صمتي عاد للحديث مرة أخرى..

ــ ماذا قلت..؟

ــ فأجبت :

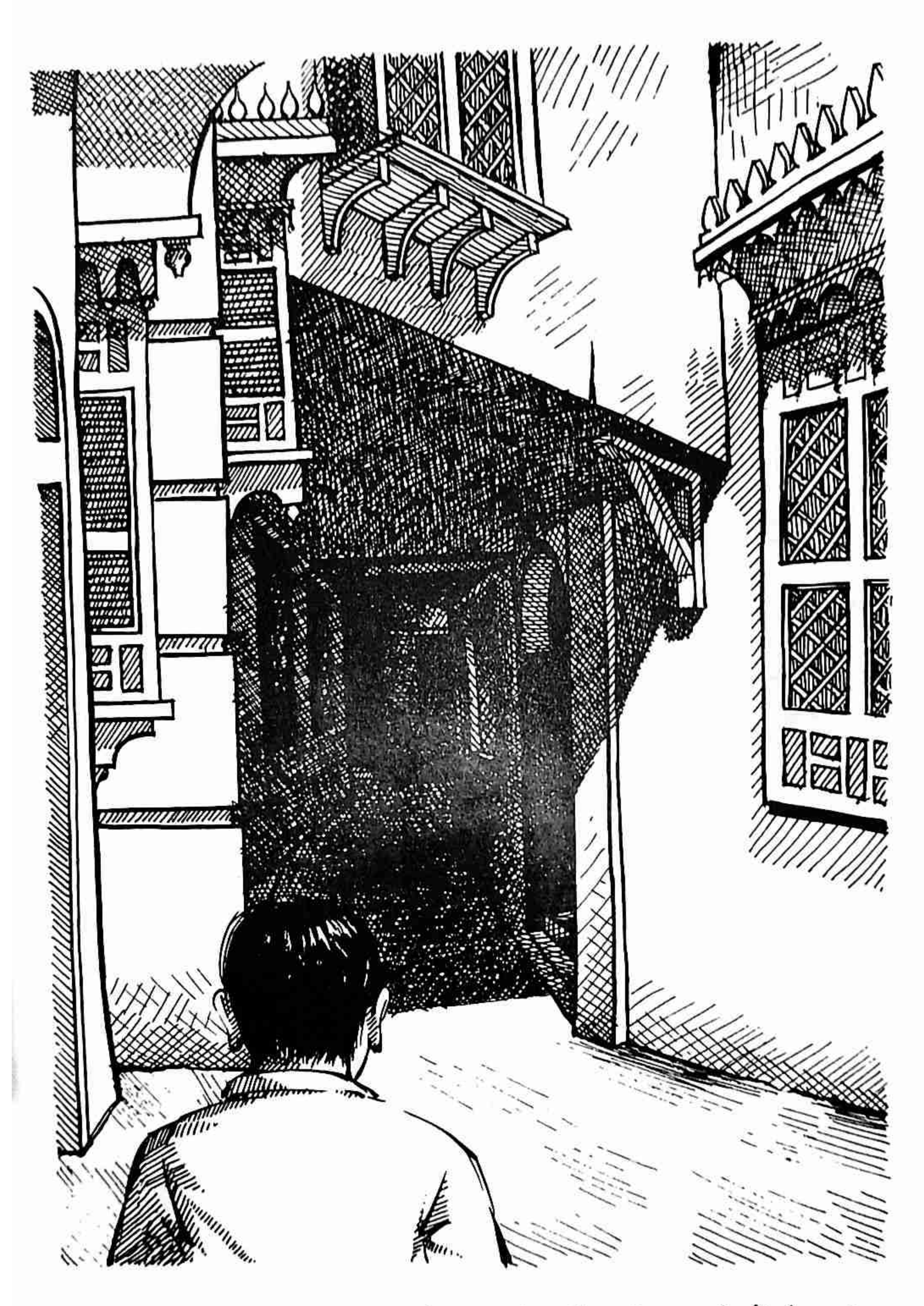
ــ لم أقل شيئاً

ــ الا تود أن تقول شيئاً..؟

وبدون وعي رددت: ولكن الليلة الثانية كانت تأتي قبل الثالثة دائماً..

وكمن غاص في بحر عميق أخذ يفرك جبهته في جهد محاولاً أن يجد معنى لما قلت، وبعد مدة بدا وكأنه سبر غوري فقال: الحياة تسير على وتيرة واحدة في العموميات، ولكنها لاتفعل ذلك في التفاصيل.. والموت والحياة يتعاقبان.. ولايعرف أحد أيهما كان الأول أهو الليل أم النهار..؟

ولم أستطع أن أرد فلقد عادت تلك اللوحة تتراقص أنوارها أمامي.. فانصرف كل لشأنه..



« .. ثم انحرفت بي إلى طلعة الصفا .. فسقيفة الصفا حيث يتجنب الناس عادة المرور منها بعد أن يظلم الليل.. ولكني لم أكن أحس بالليل ولابالظلمة فولجتها..»

«إن خير الأسماء ماحُمِّد وعُمِّر» هكذا بدأ حديثه معي تلك الليلة، ولما كان تحريفه للأثر واضحاً.. كما كان هدفه في أن اسمي ابني على اسمه واضحاً أيضاً.. أجبت:

ـ أريد أن اسمي ابني محيسن محيسن

ـ قال: تقصد أن تسميه محيسن فيكون محيسن ابن محيسن؟

ـ لا... وأنا أريد أن أسميه محيسن محيسن.. وأضفت هل تذكر أول رواية قرأتها أنا في مكتبتك..؟

ـ قال: نعم..

ـ قلت: كان بطلها اسمه «جون ٣»

ـ قال: :أذكر..

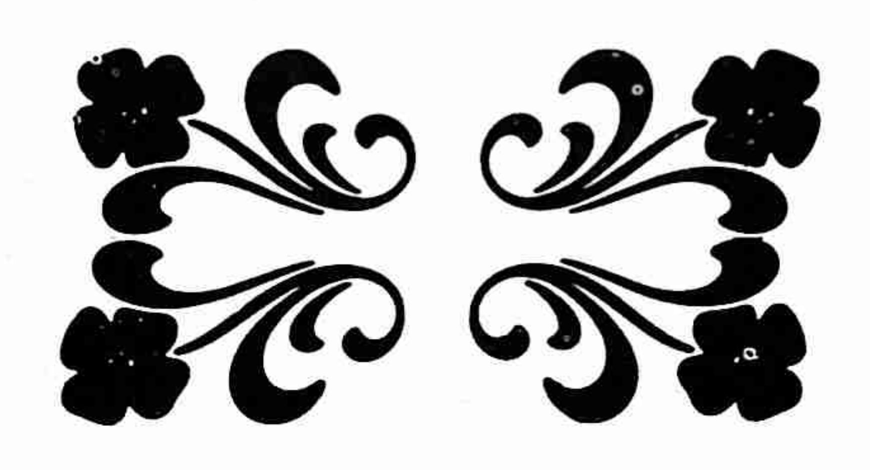
ـ قلت: وتذكر أنني حين سألتك عن معنى ذلك قلت معناه أن اسم البطل جون واسم أبيه جون واسم جده جون ولذلك فهم يكتبون اسمه «جون٣» أي جون الثالث..

ـ قال: أذكر..

ـ قلت: أنا غير واثق من أن ابني محيسن سيسمي ابنه

محيسن أيضاً ولذلك فسأسميه محيسن محيسن.. حتى يضطر أن يكتبه محيسن محيسن بن محيسن..

فأشاح ببصره وهمس ــ وأقسم على ذلك ــ وبصوت خافت جداً ظن أنني لم أسمعه.. همس قائلاً: «الجنون..فنون».. □□□





المملكة العربية السعودية - تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ - برقياً دار الرفاعي

الرياض { ص. ب ١٥٩٠ الملز
الرمز ١١٤٤١

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
ت : ٤٨٢٤٩٨٣ الدرعية
ت : ٤٧٨٨٥١٠ الملز

القاص والقصة

أما الكاتب الأستاذ حمزة محمد بوقري ــ رحمه الله ــ فليس جديداً على إصدارات دار الرفاعي، فقد عرفناه في كتابه الذي صدر ضمن سلسلة مكتبة الدراسات ــ بل أولها ــ بعنوان (القصة القصيرة في مصر ومحمود تيمور).

وقد دلتنا تلك الدراسة القيمة على عناية الأستاذ البوقري بالقصة.. واهتمامه بها، ولكن اهتمامه لم يقف عند حد دراسة تاريخ القصة القصيرة، والبحث في ذلك، بل تجاوزه إلى منطقة الإبداع.. إبداع القصة ذاتها.. والولع بالقصة وكتابتها وترجمتها ولع قديم مؤصل لدى كاتبنا البوقري وهو يتجدد الآن بكتابة القصة الطويلة، فها هو الآن يشارك في سلسلة (دنيا القصص) بروايته الشيقة هذه (سقيفة الصفا) التي ينقلنا عبرها إلى سنين خلت، لنقف على الصورة الاجتماعية في مكة المكرمة، ونعيش معه تفاصيل تلك الحياة، وما كانت تزخر بها من عادات وتقاليد، وأفكار وموروثات، ويعرج بنا على طبيعة الجو العلمي الذي كان سائداً آنذاك، من خلال رحلة بطله محيسن، ويجسد لنا المفارقات والتطورات التي طرأت على البيئة المحلية عبر رحلة كفاحه.

إنها رواية تمثل معلماً واضحاً من معالم الفن الروائي في هذه البلاد، كما تصور البيئة المحلية تصويراً حيّاً يذكرنا برواد القصة الطويلة الذين صوروا بيئاتهم المحلية تصويراً دقيقاً رائعاً.

دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع